رواية
سأظل
أحبك
عبدالله مجيدي
دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني 2019

سأظل أحبك

رواية قصيرة

عبدالله مجيدي

دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني

البريد الإلكتروني

kesasandhekayatpub@gmail.com

موقع الدار

https://kesasandhekayatpub.blogspot.com/

للتواصل عبر ماسنجر صفحة الدار

m.me/kesasandhekayat

فريق عمل الدار

أ. رمضان سلمي برقي

أ. حسن كشاف

أ. هشام وهبي

العنوان: سأظل أحبك

النوع الأدبي: رواية قصيرة

المؤلف: عبدالله مجيدي

المُدقق اللُغوي: فريق عمل الدار

اللغة: فصحى

التنسيق الداخلي والإخراج: فريق عمل الدار

تصميم الغُلاف: فريق عمل الدار

سنة النشر: 2019

الحالة: حصريًا

رقم الطبعة: 1

رقم الكتاب بالدار: 23

تم النشر بواسطة دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني2019

الدار غير مسؤولة عن أفكار الكُتّاب الواردة بإبداعاتهم؛ الكُتّاب وحدهم المسؤولون عنها.

الصفحة الجروب الموقع

(١)

عندما فتحت ساندرا النافذة، لاحظت أن الكيس الذي جمعت فيه الأوراق وبعض الفضلات المنزلية قد تم فتحه وسقطت منه كل النفايات. ذهبت إليه وأعادت إغلاقه من جديد وهي سارحة بمخيلتها، تراقب قريتها المنعزلة الموحشة، التي تعيش فيها بعد وفاة والديها مع جدها وجدتها الطاعنين في السن .

كان الوقت يشير آنذاك إلى منتصف النهار، بعدما صرخت عليها الجدة لتناول وجبة الغداء قائلة" تعالي لقد حضرت الأكل ". ردت عليها، وقامت نحوها بسرعة وقالت "حسنا سآتي في الحال"، ولم تنس الجدة كما تفعل دائما أن تأمرها بالقيام ببعض الواجبات، التي أصبحت عاجزة عن القيام بها، بسبب تقدمها في العمر. وقبل دخولها المنزل أشارت جدتها إلى المائدة قائلة " إن الطعام فوق المائدة تناوليه ولا تنسي غسل الصحون وترتيبها ". حملت الفتاة الملعقة وقالت لها " لا تقلقي سأفعل ذلك ..بالمناسبة إن طبخك لذيذ للغاية. شكرا لك.. لم أتذوق في حياتي أحسن منه " .

خرجت ساندرا بعدما غسلت الصحون وأعادت ترتيبها في السلة، التي أصبحت رثة من كثرة تعاقب السنين عليها واستعمالها، حتى صارت قديمة وبالية، ثم ذهبت إلى المزرعة لقطف بعض الخضر لتطهوها على العشاء مساء، وبعد جلبها،

أسندت ظهرها على الحائط وراحت تفكر لوهلة في حبيبها، الذي هاجر من أجل العمل ولم يعد حتى الآن. كان هو الآخر يعمل في مطحنة للدقيق عند "فاسيليوس"، الذي يعامل عماله بقسوة ويجهدهم كثيرا، ومن صفاته أنه كثير الصراخ وسريع الغضب، لا يهدأ له بال عندما يستريح أحدهم أو يراه جالسا، دخل واضعا يده خلفه وهو يلتفت يمينا ويسارا ويقول " إن الارضية متسخة. قوموا بكنسها وطرد هذا الغبار اللعين، لأنه إن بقي سينفر الزبائن منا ولن يبقى أحد أبدا. ورغم تعبهم وإرهاقهم إلا أنه أصر عليهم لمواصلة الشغل، ليتكئ هو على كرسيه الخشبي، حاملا معه فنجان قهوة يحتسيه، مكتفيا بمراقبتهم دون أن يساعدهم ولو بالقليل.

جاء هذا الرجل من الجنوب الغربي لليونان، ليستقر في الشمال مع عائلته، هربا من الصراع والجرائم التي قامت ولا زالت تقوم بها جماعة المسلحين، رغم ضعفهم وانهيار قواهم في الآونة الاخيرة بعد سيطرة الجيش الملكي على كل البلاد. اشترى منزلا لعائلته التي تتكون من أربعة أفراد في شمال البلاد، بعد إرسال ابنه الكبير خارجها من أجل الدراسة والعمل بعيدا عن الفقر وانعدام الأمن والاستقرار.

شارف خادماه على الانتهاء من الكنس والتنظيف، ومسح كل الجدران من غبار الطحين، وما هي إلا لحظات حتى نهض من مقعده وصرخ بصوت عال، بعدما جاءت العربات التي تحمل القمح وقال " هيا بسرعة لقد جاءت أكياس القمح ،

ضعوها في المخزن ولا تنسوا إحكامها جيدا". هرع جميع أفراد العمل فور سماع صوته الخشن، حيث قام كل شخصين بحمل كيس ووضعه في المكان المناسب له ، وبينما لا تزال ساندرا جالسة أمام المنزل شاردة البال، رغم حلول وقت غروب الشمس، تقدم منها الجد ولمسها على كتفها الأيسر، فزعت منه وقالت بعد توجيه نظرها نحوه " لقد أخفتني " انثنى على قدميه وقال لها " فيما تفكرين يا بنيتي.. طوال هذه الفترة راقبتك وأنت تتأملين بتركيز رهيب أقلقني عليك " ، تنهدت من سؤاله وقالت " لا شيء جدي.. قم ندخل إنه المساء قد حل"

تقدمت الجدة وحفيدتها لإعداد الأكل والتعاون فيه، فيما راح جدها يقرأ صحيفة عن التاريخ الذي ميز القرية خلال السنوات الماضية ، تمعن فيه جيدا وهو يغوص في أفكاره التي أنسته عض الجوع، وأخذت به الذكريات إلى الماضي وما فيه من أحداث عجيبة، وعن قطاع الطرق الذين تناموا بسبب الفقر المدقع في الأحقاب الخالية التي مرت، مما دفع الكثير من شباب وسكان المداشر والأحياء النائية، لتنظيم جماعات مسلحة تنشر الرعب والذعر في نفوس الأهالي، حيث كان يقوم هؤلاء المسلحون بقطع الطريق عن سالكيه، وسلب أموالهم وفي بعض الأحيان يسلبون أرواحهم بمجرد الاختلاف معهم، وبحث كذلك بين صفحاتها عن الأسباب التي أدت إلى تراجع قوتهم ونقص أعدادهم، مثل تقديم إصلاحات وتكاثر فرص العمل. لم ينهي نصف قراءته، بل زادته الأحداث التي أخذ يرسم لها صورا

في ذهنه ومخيلته الواسعة، تشويقا في المتابعة حتى تم وضع الطعام على المائدة في غرفة المعيشة.

نادته زوجته للحضور قائلة " تعال يا عزيزي إن العشاء جاهز "، رد عليها بعد أن وضع الصحيفة التي طواها على الأريكة، وقال " حسنا سآتي الآن ".

كان جائعا، فالتهم الصحن بأكمله ولم يغادر منه شيئا، ثم عاد لإكمال قراءته بعدما أخذ معه فنجان قهوة لاحتسائه، قدمته له حفيدته قبل أن يخلد إلى النوم ، في حين كانت هي قد قاربت على الانتهاء من ترتيب المنزل، لتشعر بعد ذلك بنعاس وإرهاق كبير يدعوانها إلى النوم ، نزعت نعلها وهرعت مسرعة حافية القدمين نحو فراشها، الذي كان بجانب الجدة . لكن دائما ما يعكر صفو نومها هو تذكر وفاة أمها أريانا ووالدها أديسيوس، فتنهض من مكانها وتبدأ بالكلام مع نفسها، وكأنها تهلوس أو تفكر في الجلوس على قارعة الباب، مقابلة الطريق كي ترتاح نفسيتها، ودائما ما تقول عندما تستفيق " إن فراقكما يقتلني كلما تذكرته وثقل علي، كلما حاولت نسيانه " وترفع أحيانا صوتها حتى تستيقظ جدتها، لكن دائما ما تتجاهلها إلا هذه المرة قامت من فراشها وقالت " أ ما زلت مستيقظة ...؟ أجابتها ساندرا بحزن شديد " نعم من جهة أرق لا يدعني أنام، ومن جهة أخرى وفاة والدي يحزنني فيجعلني صاحية لا أنام. استأذنك في الذهاب غدا إلى صديقتي ألورا، بعدها أعرج على قبر أبواي أراهم و أدعوا لهما قليلا، فأنا مشتاقة كثيرا لاحتضان قبريهما، لأني أشعر بالأمان بجوارهم...!" ابتسمت لها

الجدة وقالت "لا مانع لدي .. أخلدي إلى النوم الآن وفي الصباح يمكنك فعل ما تشائين "

التفت كل العائلة بالأغطية ونامت في ليلة من لياليها المتقلبة الهادئة، في أيام والمزعجة في أيام أخرى، لتستيقظ في الصباح الباكر على صياح الديك، وكان فصل الخريف على الأبواب، والأجواء بدأت بالتغير، فكل شيء أصبح رمادي اللون، حتى أوراق الأشجار ذبلت وتساقطت على الأرض وتناثرت في كل أرجاء المعمورة . حضرت الفتاة ساندرا نفسها، وارتدت ثيابها وحذاءها، واستعدت للخروج إلى صديقتها في بيتها، الذي يبعد مسافة ساعة من المشي، وبينما هي تسير في الطريق وتحاكي الطبيعة القاسية، بالنظر هنا وهناك وتقول " لا شيء سوى هذه الغربان التي تطير فوق الأشجار التي أصبحت عارية، لا شيء جميل فكل الأرض تبعث على الملل و الاكتئاب "

وظلت تسير على هذه الحالة، حتى وصلت أخيرا لوجهتها، فدخلت وألقت التحية على صديقتها وأمها، اللتين كانتا جالستين أمام الباب، وكأنهما يتهيآن لقدومها، فبادراها بالرد ودعياها للدخول واحتساء كوب من القهوة والتكلم قليلا، نزعت حذاءها وتقدمت لغرفة الضيوف، التي كانت على جهتها اليمنى عند دخولها، حيث راحت الأم تحضر القهوة لضيفتها، وبعد الانتهاء قدمتها لها، وتركت الصغيرتين يتكلمان على انفراد، بينما هي ترتب المنزل. جلست ألورا بجانب صديقتها، وهي مسرورة بقدومها وراحت تسألها عن حالها وملامح الحزن بادية

على وجه ساندرا، التي أرهقها الزمن وأتعبتها الحياة وقسوة الظروف التي مرت وتمر عليها، فكان ردها " كيف سيكون..؟ إنه كالمعتاد لا شيء فيه جديد، فقط التعب والمشاق التي تلاحقني منذ أن خرجت إلى النور . وأنت ما أخبارك ؟ أتمنى أن تكون خيرا ...!

اقتربت منها ألورا أكثر ووضعت ذراعها الأيمن على رقبتها، كأنها تعانقها والذراع الآخر على حجرها، وقالت " نعم إنها كذلك، لكن آسف على حالك تبدين شاحبة، تغيرت ملامحك كثيرا، استاءت لكلامها وقالت " نعم آسف لذلك "، ثم وضعت فنجان القهوة الذي لم تنهه بعد وطلبت منها أن ترافقها إلى الخارج، للذهاب إلى قبر أبويها، لكن ألورا رفضت ذهابها وحاولت إبقاءها مدة من الزمن، فهي لم تراها منذ مدة طويلة.

ومن دون سابق إنذار، فتحت الباب وراحت تركض نحو القبرين، ودموعها تكاد تجف من كثرة ذرفها لها. بقيت على حالها، فما إن حطت ووطئت قدماها أرض المقبرة، حتى ارتمت بين القبرين، اللذين سرقا الفرحة منها، وتركاها فريسة للحياة القاسية ، الشكوى والأنين، هذا ما فعلته تصرخ وتقول " لماذا ..؟.. لماذا تركتماني وحيدة في هذا العالم الموحش..؟ بعد ابتعادكم عني، أصبح يراودني إحساس يخنق قلبي ويزيد من حسرتي وآلامي الموجعة... أليس لديكم قلب يحن علي..؟ لماذا يا والدي.. إن الفرحة أصبحت من النوادر، رحلتم في وقت مبكر، ولم أنعم بدفء أحضانكم، وصارت ذرات التراب هاته الملاذ الوحيد بالنسبة لي".

عاد الجد، وكانت الساعة تقارب الثانية عشرة زوالا، وقد أصلح قميصه الذي كان قد التصق بالنافذة بالخطأ، فتمزق وأخذه عند الخياط ليخيطه، وعند دخوله المنزل تفاجأ أن حفيدته لم تعد حتى الآن فسأل زوجته قائلا " أين ساندرا؟ إني لا أراها .. " فردت عليه بعدما هزت كتفيها " وما يدريني خرجت منذ الصباح ولم ترجع ، قالت أنها ستذهب لقبر والديها بعد أن تزور ألورا "

صدم العجوز وانتابته موجة من القلق على حفيدته، فخرج مسرعا بخطوات متعثرة فرآها عائدة وقد احمر وجهها من كثرة البكاء، فوقف أمامها وقال مخاطبا إياها " أين كنت ؟ " لكنها لم تعره أي اهتمام ولم تجبه، وتابعت مسيرها نحو البيت وهو يتتبعها ويراقبها عن كثب، محاولا التخفيف عنها قائلا " ما بك يا ابنتي..؟ أنت لست على ما يرام ، أنا أفهم مشاعرك وأتفهم أحاسيسك، لكن هذه سنة الحياة؛ كلما تعلقنا بأحد، سرقته منا شئنا أم أبينا، فلست الوحيدة التي يتمتك، الكثير من الناس حالهم مثل حالك، وأسوء في بعض الأحيان، لذلك كفي عن التذمر، فلن يفيدك هذا بشيء، بل هو مضر وسيزيدك قهرا على قهر، امسحي دموعك واقبلي قضاء الله وقدره " .

بهذه الكلمات الرقيقة اعتقد العجوز أنه خفف عنها الألم، الذي لطالما اعتبرته كابوسا لا يضمحل أبدا، دخل الاثنان المنزل معا، فتوجهت ساندرا ووقفت أمام النافذة والشمس كانت قد اعتدلت وسط السماء، متجهة بعد الزوال إلى ما وراء الأفق والجبال ، تاركة شعاعا أحمر وبريقا ينعكس على أعينها الجميلة.

مر شهران على زيارة البنت لقبر أمها أريانا ووالدها أدسيوس، لكن هذا زاد مشاعرها حزنا وأسى وقهرا كبيرا ، فقد أصيبت بفراغ نفسي حاد، وانعكس ذلك على عالمها الروحي الداخلي، تاركا آثار التعاسة والاكتئاب والمرض على عالمها الخارجي، كلما خرجت لبلدتها الموحشة تعاقبها ذكريات لا تندثر أبدا . فرغم جمالها وإطلالتها الرائعة المتواضعة، بشعر أصفر منسدل على كتفيها وعينين عسليتين براقتين وخدين ورديين يبعثان على الانبهار والإعجاب في كل من تسقط عيناه عليها، لم يرحم القدر هذه الطفلة، وكأنه ختم عليها العيش بمرارة طوال عمرها، وزرع في طريقها أشواكا وسقاها بمعاناتها. وما يبقيها بدون أمل، هو أن ما تعيشه الآن، مشابه كثيرا لما حدث لوالديها.

لقد أتى والدها أدسيوس من مدينة أسبرطة، إلى تلك القرية البائسة التي تعيش فيها الآن ، والتقى بوالدتها أريانا، ليتحول ذلك اللقاء لقصة حب انتهت بزواج، وسط فرح كبير وموكب عرس عظيم، وبعد مرور الوقت، أنجبت له ولدا توفى بعد ولادته بأسبوع، أمضت أكثر من شهرين بعد ذلك، لتحمل في بطنها الطفلة ساندرا، حيث ولدتها و أخرجتها لعالم البشر الجديد في بيت أبي زوجها وظلت طوال ست سنوات معها وهي ترعاها وتعطف عليها، قبل أن يحل ويأتي ذلك اليوم المشؤوم من أيام الدماء، قرر فيه أدسيوس أن يأخذ زوجته وابنته لبيت سهره، وبينما هم في الطريق، إذ بهم وفي غفلة من سائق العربة، الذي أخذهم إلى الهلاك والموت المحتم ، أخذهم في طريق وسط غابة من الغابات التي يعيش فيها

مجموعة من أولئك المسلحين. لم يقطعوا ثلث المسافة حتى وجدوا أنفسهم وسط الرصاص، صرخت أريانا وهي خائفة على ابنتها وقالت " أيها المغفل سنموت كلنا... لن أسامحك أبدا ". ثم أخذت تبكي لمدة قصيرة وفلذة كبدها نائمة في حضنها وعيناها غارقتان بالدموع كذلك، لتخرس الأم وروحها صاعدة إلى السماء بعد ذلك للأبد.

اقترب أحد المسلحين ليرى ويتأكد أن الكل قد مات، بعد عودة رفاقه لقاعدتهم، مشى بعض الخطوات بحذر نحوهم، فانبهر لما وجدها حية وأخذت ملامح وجهه بالتغير، حيث وجه بندقيته لقتلها لكن قلبه لم يسمح له بقتل تلك البراءة ، جلس على ركبته ووضع رأسها بين يديه وهو معجب بجمالها الخارق للعادة، وقال متعجبا " ما اسمك أيتها الملكة الصغير..؟ " ، كانت ساندرا في حالة خوف ورعب منه تحاول الابتعاد وهي تزحف إلى الوراء ، أمسك بها وقال" لا تخافي لن أقتلك صغيرتي " لم تستطع أن تتكلم معه، لأنها تراه مجرما حرمها من أمها وأبيها، وهي مندهشة وخائفة، بعد أن أخذت بالالتفات لتلك الجثث الهامدة، جثث أغلى ما تملك، لم يكن أمامها خيار سوى أن وجهت إليه تلك النظرة، وكأنها تقول له إن جوابك تجده في هاتين العينين الممتلئتين بالحقد عليكم ، شعر الرجل بأنه تأخر بالرجوع وأنه إذا لم يعد في أقرب وقت، سيرجع زملائه ويقتلونه ويقتلون الطفلة معه، والسبب في تأخره ليس تسيبا إنما هو محاولة معرفة هوية الصغيرة التي أمسك بيدها وقرر أن يأخذها إلى مغارة تقع وسط

الغابة تلفها حشائش قصيرة وأشجار ضخمة ، لما أدخلها تلك المغارة قال" تفضلي عزيزتي ابقي هنا ريثما أعود إليك، لا تغادري هذا المكان مهما حدث، سأجلب لك بعض الطعام وفي الغد سآخذك إلى بيتك " ، رجع ذلك المسلح بسرعة البرق إلى تلك الجثث، ورماها بعيدا عن الطريق ليعود بعد ذلك إلى معسكره الصغير، ليتفاجأ ببعض رفاقه مصطفين ينتظرون قدومه ، اقترب منه أحدهم وقال " أين كنت طوال هذه المدة ؟ " ارتبك ولم يجد جوابا مقنعا بسبب هلعه، حيث راح يلف ويدور ويشير إلى مكان القتلى " كنت هناك .... لقد أخذتهم إلى مكان بعيد، فتمالكني التعب جراء هذا فجلست أستريح قليلا، حتى أخذت معدتي بعدها بالتقلب فقضيت حاجة كذلك وجئت بسرعة .... ما الأمر إني أرى وجوهكم عابسة هل فعلت ما يغضبكم.. ؟

" استدار رفاقه وأعطوه بظهورهم وقالوا " لا لم تفعل .. لكن إن حاولت واكتشفنا أنك تخفي عنا شيئا ما، سنفصل رأسك عن جسدك ، لقد تغيرت منذ مدة حتى أنك أصبحت لا تقتل الأسرى إلا بتوتر وقلق كبير " ، مشى إليهم واقترب منهم، ووقف أمامهم بكل حزم بعدما أجبر قلبه لامتلاك بعض الشجاعة، وأقنع نفسه بأنه لا يخاف وأن ذلك الرعب هو مجرد تفكير خطأ، حتى تتغير نظرة أصدقائه تجاهه وقال لهم" ما هذا الهراء، ألم تعلموني أن الرحمة محذوفة من قاموسنا..؟ ولو وجدت في جوفنا لنزعناها وجعلنا مكان قلوبنا حجرا ؟ كيف تجرؤون على إهانتي بهذه الترهات..؟ إني أشجع المقاتلين في هذه الصفوف، ولم

أرضخ لأعدائنا يوما، ولم أنضم لهذه الثورة إلا عن قناعة، وسأظل مخلصا للكفاح حتى ننتصر، أنسيتم بطولاتي .. أنسيتم كم يشكرني القادة كثيرا على تضحياتي وتأتون اليوم لمجرد تأخر بسيط، بسبب انهاكي لتشككوا في نزاهتي. يجب عليكم أن تخجلوا من أنفسكم وأن تسحبوا أقوالكم المسيئة لي "، وبعد أن أكمل كلامه غادرهم بوجه مكشر والغضب يتغلغل داخله، معلنا استيائه وخوفه في نفس الوقت من اكتشاف جماعته ورفاقه المسلحين الأمر الذي يخفيه عنهم. أحس بعد تهديدهم له بأنه موجود في المكان الخطأ، مكان لا يأتيه إلا من يحملون قلوب الوحوش ومن لا توجد في قلوبهم ولو ذرة رحمة. بالفعل أنهكه التعب واستماله الجلوس قليلا، فاتجه ناحية المغارات والأنفاق التي يعيشون فيها، كأنهم دببة أو بعض الحيوانات البرية وهو يفكر في ساندرا ويقول " يا ترى كيف حالها ، أتمنى أن تكون قد خفت عليها الصدمة و ألا تغادر مكانها .. سأذهب إليها المساء عند حلول الظلام، لكي أراها كيف أصبحت، والآن سأستريح لعلي أهدأ قليلا "

بسط فراشه ووضع ذراعه اليسرى بين رأسه والوسادة، وأخذ يتمعن وينظر إلى أعلى المغارة، حتى أخذه النوم العميق ليستيقظ بعد ذلك وكان كل شيء لا يرى، إلا بعض تلك المصابيح التي تتلألأ كأنها نجوم في السماء بسب العتمة والظلام الدامس ، ارتدى ثيابه وتلثم وفي غفلة من العناصر، أخذ معه بعض الأكل وراح يجري بالسرعة المستحقة من أجل الوصول لوجهته وهو يلتفت هنا وهناك حتى

لا يقع له مكروه أو يصيبه خطر محدق ، وما إن وصل حتى كادت أنفاسه تغادره بسبب الركض لمسافة طويلة ، وجد ساندرا التي تركها وحيدة إلى حين عودته في رهبة بسبب تأخر الوقت و تأخره هو الآخر ، تقدم منها وهو يبتسم وقال " مرحبا صغيرتي ، أنا آسف جدا على تأخري ... خذي تناولي هذا، لقد أحضرته لك من المعسكر أعرف أنك جائعة كثيرا.."، لم تتناول الفتاة الطعام الذي أحضره لها، وهذا ما أغضبه حيث وقف أمامها وثنى يديه إلى صدره وقال " ما بك ؟ في السابق لم تجيبيني على أسئلتي و الآن تتجاهلين كلامي وكأنني غير موجود " ، ثم عاود الجلوس وهو يحدق في عينيها وقال مرة أخرى " ماذا فعلت لكي كي تعامليني بهذه القسوة..؟ بم أقسم لك حتى تصدقي أني لست من قتل عائلتك، حتى أني كنت أرمي الرصاص هباء وعبثا في كل اتجاه، ولا أعرف ماذا أصبت بالضبط ، أنت صغيرة ولا زلت تحملين قلبا نقي وروحا طيبة خالية من الضغائن والأحقاد، لذلك لا تتركي ولا تسمحي لكل من الصفات السيئة أن تتسلل إليك، أنا إنسان طيب ووجودي في هذا المكان غلط لن أسامح نفسي على ارتكابه.... سأذهب الآن، لا تجبري نفسك على تصديقي إن كنت تفكرين عكس ذلك تجاهي ..! .

خرج الرجل وهو حزين ليعود من حيث أتى، و أكثر ما يحزنه أنها تكذبه وتأبى أن تقول له حتى اسمها أو تعرف ما اسمه ، لقد تركها وقد غير كثيرا في داخلها، وهو لا يعلم بذلك. لحقت به وقد أثر كلامه على جوارحها وأصابها في الصميم، فتفاجأت به متكئا على صخرة ضخمة عند المدخل ، استدار نحوها بهدوء

وقال " إلى أين أنت ذاهبة في هذا الوقت المتأخر من الليل ؟ أنزلت رأسها وقالت " لا لست ذاهبة إلى أي مكان، جئت فقط لأعتذر لك لتصرفاتي القبيحة التي واجهتك بها، فأنا ودون أدنى شك أصبحت أعرف أنك إنسان صاحب مشاعر رحيمة وما حصل فوق طاقتك ، لا تأسف عماه حتى و إن كنت قد ارتكبت أخطاء لم يفت الأوان بعد ، الشيء المهم هو أن تحاول تصحيحها قدر المستطاع، حتى تعيش مرتاح البال، وإن لم تفعل ذلك سيبقى تأنيب الضمير يلاحقك أينما تذهب، وهذا ما لا أعتقده ومالا أريده لك، وأنا سأدعو لك الله من كل أعماق قلبي ليفرج عليك .... بالمناسبة أنا اسمي ساندرا وأنا متشرفة بلقائك سيدي "

اقتربت منه بعدما ألقت عليه هذه الكلمات البريئة والمشفقة وهي راضية بما أصابها، تلتمس له الاعذار لعل ذلك يشفي صدره ويخفف عليه بعضا من المعاناة التي أدمعت عيناه وأثقلت عليه كاهله. بالمقابل عبر لها عن فرحه وسعادته، بدموع أغرقت عينيه و أثلجت صدرها عند ضمها إليه وهو يقول " أنت فتاة رائعة واسمك من صفاتك التي تحمل في طياتها الفطنة والنضج رغم صغر سنك ، إنك تشبهين في خصالك المتزنة التي لا يحملها إلا الكبار عند الجزع في مثل هذه المواقف الصعبة ذلك الانسان صاحب الأخلاق والرقة الذي يرأف بالمخطئين أمثالي، اليوم أعادت كلماتك الجميلة الثقة والأمل الجديد في الحياة ...شكرا لك ، دعينا ندخل لن أرجع لذلك المعسكر بعد الآن، حتى لو كان ذلك

على جثتي فقد سئمت العيش تحت رحمتهم وسئمت البقاء و أنا خائف " نظرت إليه ساندرا وقالت " حسنا سندخل ، لكن قبل ذلك لم تقل لي عن اسمك ؟ " دخل و أمرها بالدخول كذلك وهو يجيبها عن سؤالها قائلا " ادخلي ، أجل صحيح لقد نسيت الأمر .. أنا اسمي سيمون، وقصتي مع هذا الإجرام ابتدأت منذ خمس سنوات تقريبا ، كان عمري ستة وعشرين عاما، كنت متحمسا لأنني سأصبح غنيا بعد أن تتم الإطاحة هذا الملك، الذي عرفنا في فترته فقرا ومعاناة شديدة ويصعد ويصير هؤلاء المجرمون حكاما مشرفين، ويقومون بتكريمنا على تضحياتنا وإعطائنا المال الذي كانوا يتوعدون بإعطائه لنا ، دخلت أنا وبعض أصدقائي معترك هذا الصراع البائس والمرير بعد عامين من زمن التحضير للثورة المزعومة، التي نخوض أحداثها القاسية الآن والتي يدفع ثمنها الأطفال والناس الأبرياء، بسبب الصراع الحاد الحاصل بيننا وبين الملك ، لم أكن اعلم أنه سيأتي يوم أحمل فيه هذا السلاح و أقتل به، فأنا لا أحب سفك الدماء ولا أدري كيف حصل وصرت أفعل هذا ، لقد استطاع هؤلاء المجرمون أن يحكموا سيطرتهم على الكثير من أرجاء البلاد، وأن يبسط قادتهم هيمنتهم عليها، ولم يكن لنا أدنى فكرة عن مخططاتهم الشيطانية التي تتمثل في استمالة الشباب وإغرائهم بوعود كاذبة، وللأسف أنا كنت من أولئك المغفلين، الذين تم التلاعب بعقولهم وخداعهم. لقد خسرنا كل شيء . أهالينا.. و أموالنا، وحتى هناك من خسروا حياتهم، نحن مجرد ذباب، لا بل حشرات حقيرة لا نساوي شيئا أمام العظمة التي

بناها كل من الملك والطرف المعادي له، على أنقاض الوهم و أشلاء الفقراء المساكين، فكل من يدخل معهم يجب عليه ألا يخالف الأوامر وأن يتبعها، فهذا جزء من تنظيمهم المحكم الذي يضمن القادة به الكثير من الموالين من مختلف شرائح المجتمع، فأول شيء يتم القيام به هو ترغيب العنصر على الانضمام لذلك الطرف، وذلك بإعطائه وعودا لا ترقى حتى لدرجة أكذوبة واهية ، ولكي يتم وضع غطاء شرعي لهذه الثورة فلا يتم استثناء حتى الدين، إما باستعماله أو نزعه مثلما نفعل نحن الآن نحارب من أجل الخروج من حكم الكنيسة التي يعتلي رجالها ويتقلدون أكبر المناصب ، فقد اعتبر زعماؤنا أن الأخيرة سبب في انتشار المظالم والفساد، الذي عم أوساط الناس الأمر الذي جعلهم يعيشون في تقهقر دائم ووسط دوامة يتخبطون فيها لا أمل لهم في النجاة، ولم يرتح كل من عمل على هذا، إلا بعد أن تيقن أن الفكرة التي ستقلب الكفة لصالحهم زرعت في عقول الشباب وبشكل محكم، ولم يكتف بهذا فقط، بل عمل أن تكون شغلهم الشاغل، حتى تتغلغل وسط المجتمع وتسهل بذلك عملياتهم، بعد أن تهيأت لها كل الأرضيات المناسبة .

في مثل هذا اليوم من العام الماضي قمنا بحرب مع جنود المملكة، الذي تأسس جيشها باسم الجيش الملكي وهدفه السامي والمهم هو حماية الملك ونظامه قبل كل شيء، وذلك بمساعدة رجال الدين له ولرجاله أيضا ، رفع الكل راية المملكة بعد خطابهم الذي يدعو إلى الحرب ويحث على الدفاع عن بلادهم ومقدراتها

وانتماءاتها القومية والدينية، وهذا ما ساعدهم على الصمود و الانتصار، عكسنا تماما فشلنا وخسرنا كل شيء وتساقطت قلاعنا واحدة تليها الاخرى مباشرة. إن التفاف الأهالي حول معتقداتهم، حال دون وصولنا أو بالتعبير الصحيح وصول قادتنا إلى مبتغاهم وبسط سيطرتهم على كامل البلاد ، وما زاد غضبهم أكثر وتذمرهم هو الضعف والتراجع العكسي لقواتنا وانهيار معسكراتنا في جميع معاقلنا ، تبا لهم لقد حطموا شبابنا وقضت تهوراتهم على مستقبلنا وكل أحلامنا التي عشنا من أجل تحقيقها ، إنه خطؤنا من الأول يا بنيتي نحن ضعفاء الشخصية، أي كلام عذب مسموم يمكنه أن يغير في ذهنياتنا المتحجرة التي لا تفقه أبدا، ولا أي لغة سوى لغة الصراع والمال الذي نحصل عليه من القتال ومحاربة بعضنا البعض ، أنا عاجز يا صغيرتي وتائه بين الحبلين وفي اختيار أحدهم أصبح الأمر صعبا علي ..هل سيقبل الجميع توبتي ويتقبلني الكل بصدر رحب أم سيرمونني ؟ ...لا أرغب في التفكير بسلبية لكن هذا حتمي من أجل وجود حل أرجع فيه إلى أهلي دون عائق .... حسنا لا تفكري معي ؛ الآن أخذت قراري وانتهى سأعود لعائلتي مهما كلفني الأمر، لكن قبل ذلك سأذهب لإحضار الجثث حتى نأخذها معنا ويتم دفنها "

وبينما هم في طريقهم إلى تلك الجثث اندهشت وتعجبت ساندرا لكلامه الذي لم تفهم منه إلا بعض الكلمات فقالت له " عماه لماذا نذهب إليهم الآن ، ألا نستطيع ترك هذا إلى الصباح..؟ " ، نظر إليها ضاحكا وقال " إذا نحن انتظرنا

حتى مطلع الفجر، عندها لن نضطر إلى حملها معنا لأننا سنصبح جثثا مثلهم، لذلك اتبعيني وسيري ورائي واسكتي " ، بقي الاثنان يمشيان حتى توقف سيمون وقام بربط جثة أريانا بجثة زوجها أدسيوس وسحبهما إلى المغارة وهو يقول " تبا إنهما ثقيلان جدا " ، لم ينس جثة السائق، فقد جلبها بعدهم مباشرة وعندما أصبح كل شيء هادئ، طلب منها أن تشير إلى قرية جدها وجدتها حتى يأخذها إليهم.. تقدم منها وقال" تعالي يا ابنتي واخبريني أين تسكنين .. أقصد في أي اتجاه وأي طريق يجب أن نسلك ، ركزي جيدا حبيبتي حتى لا نضيع وتذهب مجهوداتنا في مهب الريح "

ارتبكت من سؤاله، فهي لا تعرف البلدة التي سيذهب إليها والداها. وما زادها توترا هو أن الظلام دامس والعجلة التي كان فيها سيمون، وذلك أجبرها على أن تدله على الطريق ، وبعد تفكير طويل قالت له " إن وجهتنا على الغالب ستكون من نفس المعبر الذي كان السائق يسلكها ...وأنت ما رأيك ؟ " ، فكر الرجل في كلامها جيدا، ليوافق عليه في الأخير وهو متخوف قليلا، حيث قام بربط بعض قطع الخشب وشدها إلى بعضها البعض بحبل، وبعد الانتهاء اقترب منها وقال " أجل إن كلامك صائب. تتمتعين بذكاء كبير ...هيا ننطلق فأمامنا درب طويل، وهذا الذي صنعته الآن هو من أجل سحب عائلتك والضحية الثالث ". وضع سيمون الحبل الذي وصله بطرفي القطع الخشبية على رقبته، وسار في مسلك لا

يعرف نهايته، متحملا أوزار تلك الحمولة، وما ساعده على المقاومة هو بنيته الجسمية الضخمة والقوية .

لم يشعر بالتعب حتى وإن أحس بنوع من الإنهاك، إلا أنه لم يظهر ذلك ، وما زاد حيرة الفتاة الصغيرة التي تسير بجانبه هو أنه يسير بثقة، وتأكد لها هذا عند بزوغ الفجر وبروز خيوط النور التي وضحت لها ذلك، فرفعت رأسها عاليا صوب وجهه الذي لاحظت عليه الطمأنينة والابتسامة، التي من خلالها دخل في أمل جديد، ورمى وراء ظهره كل التصورات التي تزيد في نفسه انبعاث الرهبة التي عاش على أوتارها في الأحقاب الخالية ، كان قراره قد أخذ القليل من وقته وغير الكثير في حياته، حتى أنه غير مضمون البعث والمسلك الذي أضحى يسير عليه والمنهجية التي أوجبت عليه التركيز والتفكير مليا قبل أن يخطو أي خطوة.

رغم كل ما مر عليها من مشاق إلا أنها ابتسمت وتفاءلت بأن ما يخفيه لها الدهر من روائع وحياة ستكون أكيدة وقريبة. وضعت يدها على جبهتها حتى تحجب النور الكثيف الذي أزعج عينيها في البداية. لكن ما فهمته من انسدال الضوء وانبعاثه هو عبرة حركت باطن مشاعرها و أخرجتها من الثغرة التي تسببت في جعلها تمضي على خيوط المجهول، وما فجره من السعي الذي تسير به نحو إشباع عواطفها لا يعلمها إلا من مر بما مرت به. وعلى ذكر المجهول لم تتصور ساندرا أنها ستكون مولودا من المواليد، لكن بلا عائلة.. هذه النزعة التي أمضت حياتها وهي تواكبها ولا تخلو أبدا من مزجها، مزج الفرح بالحزن ومزج الحقيقة بالخيال،

وهي منطوية دائما ما تقول أو بالأخص أنها تمشي الآن " لا أصدق أني ما زلت على قيد الحياة . .! ، لا أفهم إن كان حظ أم رعاية من الله ..؟ ، إن كان حظ، هل سيدوم أم سيزول ترفه عن قريب .. لا لا إنها رعاية الرب.. دائما سأنتصر إن أراد لي ذلك، وسيكون حليفي الانهزام إن شاء كذلك. وما أريده في هذه الحياة لا يتعدى نظامها وآداب الطلب ، فقط أطلب من هذا القدر أن يبعد عني الأوهام القذرة والعيش في الأراضي المنفرة ، حتى البقاء على هذا الحال أصبح من المحال لكثير من البشر، الذين عزمت الدنيا أن تبقيهم في قنينة النسيان، بل هجرت الفرحة قلوب الكثير منهم رغم تضرعهم إليها ، دائما ما يجول في بالي سؤال يحيرني ويثقل علي .... يا ترى هل الحياة تختبرنا أم تصارعنا ..؟ يا إلهي إني لا زلت في بداية عمري. لماذا هذه الأسئلة تلح علي ؟ ..أتمنى ألا أكون عبئا عليها، لأنني صرت أشك في ذلك .." .

وبعد معاناة كبيرة مع هم الطريق، أطلت عليهم قرية لا يتجاوز عدد بيوتها عدد الأصابع وهم فوق تلة صغيرة كان بأسفلها راعي غنم ، كان سيغادر عن قريب بعد حلول منتصف النهار. أما بالنسبة لسنه فقد بدت عليه آثار الشيخوخة، إذ يقارب أو يتجاوز الخمسين من عمره. ترك سيمون وساندرا تلك الجثث، التي بدأت تفوح منها رائحة نتنة، بسب انحلال بعض أجزائها، واقتربوا من ذلك الكهل الذي خاف بعد رؤيته لسلاح سيمون، ظنا منه أنه سيقتله ، ولكن سرعان ما تغيرت ملامح وجهه، بعد رؤية حفيدته الغالية التي جرت من أجلها قدماه بلهفة

وأعينه مبللة بدموع الفرحة، التي ستختلط بدموع الحزن، عندما يعلم أن ابنته قد ماتت هي وزوجها ، وأن الذي يقف أمامه هو من ساهم في موتهم ولو بالقليل ، احتضن الجد حفيدته وقال " كيف حالك حبيبتي ...! لقد اشتقت إليك اشتياقا لا يعرف أحد حدوده، أنا مسرور وسعيد للغاية بقدومك إلينا ، لكن أين والداك ..؟ ومن يكون هذا الذي جاء معك ويقف الآن..؟ ثم أخذ يلتفت في كل الاتجاهات، وتقدم من الرجل المسلح وقال " من تكون يا هذا ؟ ولماذا جئت إلينا أصلا ؟ وما هذا الذي تحمله ؟

تقدم منه أكثر وقال " دعني أرى ....إنها بندقية ..ماذا تفعل هذه معك..؟ لا تقل إنك من هؤلاء ."

صدم العجوز وتراجع إلى الخلف وهو خائف كثيرا، بعدما اكتشف أمر سيمون الذي لم يكلمه أبدا، إلا بعد أن جلس واختلط غضبه بالحزن ووجهت عيناه نظرة اليأس الذي تبعه حتى عند توبته وقال حازما " اسمعني أيها العجوز وأنصت لكلامي جيدا.. إن ما حدث لابنتك وزوجها هو قصة طويلة لست مستعدا حتى قصها عليك ، فقط أريد أن أخبرك إنهم هناك " ، وأشار بيده إلى قمة التلة، ثم تابع كلامه قائلا " إنهم عبارة عن أجساد هامدة ، أتعرف لماذا هم هكذا ..؟ ... لا تعرف.. صحيح ، حسنا سأخبرك لأننا نحن أولئك الذين لم تكمل كلامك عنهم، بسب الخوف قتلناهم ولم نترك لك المجال حتى تراهم، لأننا مجرمون.. هذا ما كنت تريد قوله .. لن ألقي اللوم عليك الآن، فهذا نظرك إلينا وأنت حر ..

يمكنك أن تحكم علينا بما تشاء، سأذهب الآن إلى بلدتي، أريد أن تسامحني على ما اقترفته يداي وكنت أنا معها ، إلى اللقاء اعتن بنفسك وبهذه الصغيرة، واجعل الرفق عنوانا لباقي حياتك، ولا تكن حقودا مثلنا.

ذهب سيمون إلى أهله وشق بذلك طريقا تمر على قاعدته. لم يقطع إلا بعض الخطوات حتى توقف وقال بعدما مسح دموعه، وكأنه يمسح العرق من جبينه أو ما يشبه ذلك في وجهه، ولا أحد يعلم بأنه يبكي " إن لم تصفح عن خطيئتي وأردت الثأر لهم مني ، تتبع هذه الخطوات واسأل عني أمثالك، فأنا أكثر من متأكد بأنهم سيرشدونك دون تردد، وعندها يمكنك قتلي " ، ثم عاد لإكمال مسيره، وهو على مرمى نظر ساندرا التي بقيت تراقبه حتى اختفى عن بصرها وهي تقول " لماذا عماه ، ألم أقل لك آن الأوان، لم يفت بعد وأنه يمكنك التوبة ؟ ....لما إذن تظلم نفسك بهذه الطريقة ؟...أتمنى لك التوفيق وأتمنى لك السعادة ما طال من عمرك وما قصر..! .

لم تترك مكانها حتى سمعت صوت جدها يناديها للحضور ومساعدته في سحب الجثث قائلا " تعالي يا ساندرا إن الوقت متأخر .. إنها الثانية عشرة ، دعينا نأخذ والديك حتى يتم دفنهم " . ذهبت إليه ورافقته حتى القمة، لكنه تعجب لوجود جثة ثالثة حيث نظر إليها وقال " من يكون هذا ؟ .. مشيرا إلى السائق، فأجابتها "إنه سائق العربة الذي كان ينقلنا إليكم جدي " .

أمسك الأخير بطرفي الحبل، وبدأ بسحبهم وهي تساعده في ذلك، فما إن وصل إلى المنزل وجد الجدة زوجته في انتظاره، وقد جهزت الطعام منذ مدة قصيرة، فهو لا يزال ساخنا. فرحت الأخيرة بقدوم ساندرا لزيارتهم، فقامت باحتضانها وتقبيلها، لكن سرعان ما تحولت ملامح وجهها لترسم الحزن، بعد معرفة أن أريانا قد توفيت وقتلت بأبشع الطرق ، لم تكتشف الأمر في البداية، إلا بعد دخول الاثنين بشكل مريب، وما زادها شكا بحصول مكروه هو قدوم حفيدتها دون والديها .

خرجت الجدة بسرعة نحو جثة ابنتها وارتمت على جسدها وبدأت بالبكاء والصراخ، ولم تتركها رغم محاولة زوجها تهدئة الوضع والتخفيف عليها قائلا " توقفي عن هذا.. لقد ماتت ولن يعيدها البكاء ، إن موكب الجنازة قدم لحمل التوابيت وأخذهم للمقبرة، من أجل دفنهم اتركي عليك هذا وقومي من فوقها. إن الكل يحدق إليك سيسخرون منا بعد هذا الذي تفعلينه " لم تنهض عنها إلا بصعوبة بالغة، وبعد نقلهم تلك الأجساد الهامدة ودفنها، عاد الكل إلى منازلهم بعد تقديم العزاء للعائلة، إلا ذلك السائق المسكين لم يتعرف عليه أحد، ودفن معهم وكأنه غصن مقطوع من شجرة . ألم الفراق صعب لا يعرف مرارته إلا من شرب كأسه ، وتجرع منه ولو قليلا، فالكثير منا ينعم بالكثير من الخيرات يتمنى أن تزول عليه ولا يتذوق مثل هذه المصاعب، لأنها لا تساوي شيئا أمامه ، فهذه

الصغيرة التي تعيش في ريف من الأرياف النائية لا ترجو من الحياة إلا عودة والديها فقط.

فبالرغم من أنها مرت عليها الكثير من السنين اليوم، ورغم بلوغها سن الثامنة عشر، إلا أنها لم تنس ذلك الفراغ الذي عمل الجد والجدة على ملئه بالحنان والحب، وتعويضها تلك القطعة المفقودة التي تزيد الاشتياق إليها كلما كبرت و أدركت أن الذي فقدته هو كنز لا تعوضه الأيام ولا حتى السنين ، وما زاد حسرتها هو أنها تعرضت لمحاولة اختطاف من طرف مجموعة من أولئك المسلحين قطاع الطرق، أصحاب الحرابة والخراب الذين أرعب إجرامهم قلبها للمرة الثانية ، كانت عائدة من نزهة ابتعدت فيها قليلا عن القرية حيث التقت بمجموعة من العناصر قاموا بمطاردتها حتى اختفت بين الأشجار الكثيفة ، زحفت إلى أن وصلت إلى سفح ذلك الجبل الذي تشق أعلى قمته طريق، فوجدت شابا تعرفه قام بإيصالها إلى بيتها سالمة ، كان ذلك الشاب يسكن القرية قبل أن ينتقل إلى المدينة، كان صديقها من أيام الطفولة التي عاشت أحداثها في رعب وصمت، كباقي أطفال المملكة الذين أخذوا نصيبهم من الحرب.

لم تدرك أنها ستشعر بعد هذه النكسة بفقدان الأمل، فهي تلك من أوصت سيمون أن يعيش ويعلق أحلامه عليه ، وما جعلها تغفل عليه هو مرض جدها وجدتها، حيث أصبح كل واحد منهما عاجزا ، فجعلها ذلك عاجزة أيضا على أن تتحمل قهر الأيام لها، فهم سندها الوحيد في هذه الحياة، ويعد هذا خسارة ثانية

بعد إصابة جدتها بنوبة اختناق على مستوى حنجرتها التى انتفخت وضاق عليها التنفس ، حتى أنها لم تعد قادرة على تناول الطعام، وزاد عليها ذلك فلم تعد قادرة في بعض الأحيان حتى على الكلام .

ذهبت إليها وجلست بجانبها وأخذت تحدق بأعينها وتنظر إلى جسدها المنهك، وهذا ما خفف عليها ، وجعلها تحس بما يمر به غيرها من البشر حتى وإن كانوا من جلدة واحدة ، وجعلت من التأمل وسيلة للنسيان والتفكير بإيجابية. أما جدها فقد هرم وطعن في السن أكثر وصار طريح الفراش ، ولم يعد قادرا على المشي لمسافات طويلة بعيدة.

(٢)

إنه فبراير.. شهر من أشهر الشتاء، زادت فيه شدة البرد وتساقط الأمطار والثلوج ، مما تسبب في إصابة العائلة بنزلة برد حادة ، وفي هذه الأثناء كانت ساندرا تعد الغداء، لأن الساعة تشير إلى الحادية عشرة والنصف، وما إن قاربت على الانتهاء نادت على جدتها حتى تستيقظ فوجدتها قد قامت من فراشها والسعال يكاد أن ينال منها ويقتلها ، حيث كانت تستند على الحائط منحنية الظهر ويدها معلقة ترتجف .

أسرعت ساندرا نحوها، وفور وصولها إليها طلبت منها قائلة" هيا جدتي استندي على كتفي لكي أساعدك .. إن أعراض الحمى بادية عليك ..كيف صارت حالتك اليوم ؟ ، أتمنى أن تكون حنجرتك قد خف عليها الوجع ، تعالي سوف أسكب الحساء لك لعله يفيدك .

لم تجب الجدة على كلامها، واكتفت برسم ابتسامة على وجهها المجعد الذي يعبر عن معاناتها في صمت ، أشارت بيدها إلى قدر الطعام وقالت " ناوليني الملعقة والصحن حتى أسد رمق جوعي وأسكت أمعاء بطني الخاوية". حملت إليها الفتاة وقالت " حسنا تفضلي تذوقيه وأخبريني برأيك في هذا الطبخ ... لأني على ما أظن مازلت لا أجيد الطهو جيدا ، وضحكت محاولة أن تمازحها وتخفف عنها .

راحت الجدة تتناول الطعام، وصعب عليها ذلك، فما إن أخذت ملعقتها الثانية حتى سدت حنجرتها ببعض الفتات الذي لم تمضغه جيدا ، احمر وجهها وأصبح يشبه البلورة، فبدأت بالتخبط هنا وهناك حتى صراخها يكاد يسمع الأصم ، فأصاب حفيدتها نوع ما من الارتباك، فلم تجد حلا سوى أن تضرب بيدها على ظهرها، كي تساعدها في ابتلاع الأكل وهي تبكي وتقول " جدتي.. جدتي ما بك تفضلي لقد أحضرت الماء .. اشربيه على مهل، لكنها لم تصغ لكلامها وأخذت تشرب بلهفة فنزعت لها الكأس وقالت " إن أنفاسك تتقطع.. على مهلك " ، لم تمر ساعة على هذه الحالة ، حتى دق باب المنزل فقامت لتفتح، فإذ بالجد واقف أمامه وهو يحمل كيسا أسود قدمه لها قائلا " تفضلي عزيزتي.. أمسكي هذه المؤونة من يدي، إني أكاد أسقط من ثقلها ، أمسكت عليه الكيس بوجه عبس، ليتقدم ويتوجه مباشرة ناحية زوجته التي كادت تفارق الحياة لولا رعاية الله وحفظه ، جلس قريبا منها وهو ينظر إليها نظرة المشفق ثم قال " ما بك يا امرأة.. إن حالتك تبدو سيئة ، لا تعجبني ملامح وجهك.. سأطلب الحكيم حتى يفحص هذه الحنجرة التي أتعبت جسمك.. إنه يضعف يوما بعد يوم ويزداد سوءا ، إن جسدك صار هزيلا للغاية.

ردت عليه بصوت خافت وقد جفت شفتاها وظهرت عليها تشققات بارزة، وكذلك جف لسانها من اللعاب وقالت " حسنا اطلبه بسرعة.. إن صحتي تتجه نحو

الأسوء ، لم أعد قادرة على التحرك بأريحية ..أحس أن جسمي وكأنه شل، بالكاد أستطيع أن أشعر بجلدي وهو يقشعر ، كما أني سئمت الحياة وأنا مقعدة ..!

حمل الجد ورقة و قلما ونص عليها رسالة إلى الحكيم، وأرسلها مع أحد التجار الذين يمرون على عيادته ، لكن الأخير أطال عليهم وتأخر وهذا ما أقلقهم وزاد من توترهم ، فقد مرت أربع ساعات على كتابته لتلك الرسالة، ولم يحضر بعد فقام الجد من مكانه ليخرج لعله يلمح شيئا أو يجد حلا لهذا الإشكال، فقد وضعه في موقف حرج ، لكنه في الأخير وبعد أن تلاشى أمله، لاحظ قدوم عربة من بعيد، وهذا ما جعله يتأكد أنه الطبيب وبالفعل لقد كان هو. نزل الأخير من عربته وألقى التحية واعتذاره كذلك للجد قائلا " مرحبا عماه.. كيف حال الجميع ؟ أنا آسف على تأخري، لقد كنت مشغولا ، وكثرت علي ضغوطات المرضى ، هلا أخذتني عند المريضة حتى أراها .

تقبل الجد موقفه بصدر رحب، وعبر عن ذلك بأن انحنى وطلب منه أن يتفضل إلى منزله المتواضع . فدخل حاملا معه حقيبة سوداء، أخرج منها قطعة خشبية صغيرة عند وصوله إلى مريضته ثم طلب منها أن تفتح فمها قائلا " هيا افتحي فمك حتى أرى ما أصاب حنجرتك " . فتحته والألم يعتصر صدرها ورقبتها، فنظر إليها وهو مندهش لما رآه وتوصل إليه بعد إجراء الفحوصات ، قام بإخراج قارورة بها محلول أحمر وأعطاه إياها، وطلب منها أن تتناوله قبل كل وجبة واستدعى كذلك الجد وساندرا للتكلم في أمرها ، وبعد خروجهم وضع يديه إلى الخلف، ثم

استدار نحوهم و قال " إن حالتها الصحية متدهورة للغاية ، ولا أظن أنها ستبقى على قيد الحياة مدة طويلة ، إن أعضاءها التنفسية على وشك الانسداد وهذا ما لا أتمناه ، فقط احرصي واحرص على صحتها ومراقبتها، وكذلك يجب ألا تعلم بما قلته لكما، فهذا قد يؤثر عليها كثيرا، لأن هذا مجرد احتمال .. ويبقى احتمالا، وقد لا يصح ويكون خطأ.

أخرج الجد النقود من جيبه من أجل إعطائها للحكيم، لكن الأخير رفضها وعاد إلى منزله دون أن يأخذ قرشا واحدا. أغلقت ساندرا الباب وراءه ودخلت مع جدها إلى المنزل الذي أصبح وكأنه يشبه وكرا للأشباح والأرواح الشريرة، جراء الإهمال الذي لحق به في الآونة الأخيرة ، ثم اتجهت بعد لحظات إلى المطبخ وراحت تعد العشاء، وهي قلقة تفكر فيما قاله الطبيب دون أن تتفوه بكلمة واحدة ، حملت السكين وبدأت بتقطيع الجزر في صمت ورمي حبات الفاصولياء في قدر لتطهو الأكل، وهي تقابل موقد النار الذي وضعت فوقه الأخير لنيل بعض الحرارة وجعلها دافئة ، فنحن في فترة انقضاء الشتاء، وهي من أصعب الفترات يتقلب فيها الجو ويكثر فيها قرص البرد والقر .

كانت بجانبها المائدة، فمدت يدها حتى تقربها وتضع فوقها الطعام الذي يتمثل في حساء الفاصولياء ، رتبت الصحون جيدا فوقها ثم نادت قائلة " جدي ..جدتي تعاليا ، إن العشاء جاهز " وبعد حضورهم قالت مرة ثانية " تفضلا سأقدم لكما الأكل ... أتمنى أن يعجبكما ..!

جلست كل العائلة والتفت حول المائدة ، والكل في باله شيء يريد البوح به، لكن الحزن خيم عليهم فجعل من التكلم أمرا مملا ، حتى أنهم أسقطوا رؤوسهم وأعينهم، وأخذ كل واحد منهم يأكل ما عدا الجدة التي اكتفت ببضعة ملاعق قليلة، لتقوم بعدها فأمسكت بيدها ساندرا وقالت " دعيني أساعدك .. فأنت متعبة كثيرا ".

أخذتها إلى غرفتها وقامت بتغطيتها جيدا، وعادت لغسل الصحون وترتيب البيت، لأن جدها ذهب إلى فراشه حتى ينام ، وبينما هي منشغلة خطرت في بالها أسئلة، فبدأت تسأل وتتساءل في أمر حبيبها أدونيس وتقول " يا ترى متى يعود ؟ لقد اشتقت إليه كثيرا ، يا ترى هل هو بخير ...؟ أتمنى أن يكون كذلك ويعود إلينا في أقرب وقت. ثم وجهت نظرها إلى الساعة وقالت " لقد تأخر الوقت كثيرا، إنه موعد النوم ..علي أن أسرع".

ذهبت إلى فراشها وقامت بترتيبه جيدا، وبعد استلقائها غطت في نوم عميق وأخذتها مخيلتها إلى عالم الأحلام ، حيث رأت أمها في المنام وهي ترتدي سترة بيضاء وعقدا ذهبيا جميلا ، وعلى رأسها قطعة قماش تغطي فقط جزءا صغير منه .

كانت مربوطة القدمين وقد اشتد نزيفهما بعد أن بتر إصبعها الأيمن ، تملك الرعب قلب الفتاة عند رؤية أمها بهذه الصورة المخيفة، ولم تحتمل هذا المشهد الذي جعلها في الأخير تستيقظ بصرخة قوية مدوية قائلة " لا.. لا ..لا .. أمي ما بك..؟ ". وظلت على هذه الحالة من الصراخ حتى هرع إليها الجد بعدما سمع

صراخها، أشعل الأنوار وتقدم منها قائلا " ما الذي جرى حبيبتي....لماذا تصرخين هكذا ؟ "

ردت عليه وهي تكاد تختنق والعرق يغطي معظم وجهها " إنها أمي يا جدي تتألم.. لقد قطع اصبعها ماذا أفعل بحالي ؟ ، تقدم منها العجوز وقام بضمها وشدها إلى صدره ليشارك قلبها الحزن وما إن هدأت قليلا حتى قبلها وقال " ما هذا الذي تقولينه ..؟ لن أسمح لأي مكروه أن يصيبك ، إن أمك في نعيم ..لقد ماتت وما هذا الذي رأيته قبل قليل، ما هو إلا من أضغاث الأحلام.. لا تشغلي بالك في التفكير به. والآن ارجعي إلى نومك، وحاولي ألا تفكري فيما رأيته ولا تفكري إلا في النوم " ثم قبلها على جبينها وقال " مع السلامة.. ليلة سعيدة " ، حاولت أن تطبق ما قاله لها، لكن لم ترفع عينيها عليه وهي تراقبه حتى وصل إلى باب الغرفة فقالت له " طابت ليلتك جدي "، لتعود بعد ذلك للنوم. حتى هذه المرة رأت حلما ، لكن كان مختلفا، فقد شاهدت أمها و أباها معا وهم ينادون عليها للذهاب قائلين " ساندرا تعالي إلى هنا ..نحن في انتظارك في هذا العالم " تقدمت منهم حيث كان يسطع من ورائهم نور أبيض شديد منعها من النظر مباشرة إليه . ثم نظرت إليهم وقالت " ما هذا العالم الذي أراه يا أمي ويا أبي..؟ " لم ترد عليها الأم، فأجابها الأب قائلا " إنه عالم الروح والأرواح ، فكلنا سنلتقي هنا فهذا العالم الذي لا يوجد فيه إلا النقاء، فكل من يأتي هنا لن يغادر ولن يرجع إلى عالم البشر، إنه عالم مختلف كثيرا . شدت ساندرا والديها إلى صدرها واحتضنتهما

بقوة وهي تبتسم فرحة، لكن لم تدم مطولا فما هي إلا لحظات حتى اختفى كل شيء شاهدته في ذلك العالم، لأن الشمس أشرقت ومنذ مدة طويلة ، فجعلها ذلك تقوم مسرعة من فراشها لإعداد الفطور، قامت بحمل علبة البن، فوضعت منها ثلاث ملاعق من القهوة وراحت تغليها وسط ماء دافئ وعلى نار هادئة وهي تراقب وتحدق فيها بتركيز، وفي هذه الأثناء استيقظ الجد فتقدم منها وألقى عليها التحية قائلا " صباح الخير بنيتي .. كيف أصبحت نفسيتك اليوم ؟" ، قالت له مبتسمة " بخير يا جدي ، إن مزاجي أصبح جيدا هذا الصباح " ، فرح الجد كثيرا بعد تحسنها وأحس بسعادة كبيرة ثم ذهب إلى الحمام ليغسل وجهه، لأنه سيذهب إلى السوق ، لكنه لاحظ أن زوجته لم تستيقظ حتى الآن ولازالت نائمة ، جلس أمام المائدة لكنه رفض الإفطار إلا بعد حضورها فسأل حفيدته عنها قائلا " إني لا أرى جدتك ! "، ثم نادى عليها عدة مرات متتالية حتى ردت عليه بعد فترة " سآتي .. دقيقة انتظروني " ، قال زوجها الذي ضاق عليه وتأخر على موعد الخروج " حسنا نحن في انتظارك لا تتأخري " .

حضرت الجدة، فطلب منها أن تسكب له القليل من القهوة، لأنه في عجلة للخروج من أجل إحضار بعض المستلزمات و الأغراض، حملت له الإبريق وسكبت له نصف فنجان احتساه وهيأ نفسه للخروج، حيث ارتدى معطفه وحذاءه ورافقته ساندرا إلى الباب وهي توصيه قائلة " اعتن بنفسك ولا تنس أن

تزور الحكيم لتطمئن على صحتك ". استدار إليها وقال هو الأخر " لا تقلقي سأذهب إليه ..هيا أغلقي الباب وعودي إلى البيت " .

سار نحو وجهته بخطوات صغيرة، وكأنه طفل في بداية مهده يسقط ويقوم حتى وصل فدخل وجهته حيث لمح صديقه ألكسندر، الذي يشتغل في خياطة الأحذية، فذهب إليه واتجه نحوه ليراه ، ألقى العجوز التحية وقال " أهلا صديقي ..كيف حالك..؟ قام ألكسندر من مكانه لكي يصافح صديقه قائلا " بخير وأنت كيف حالك..؟ تفضل اجلس هنا " وقدم كرسيا خشبيا صغيرا، فجلس الجد وهو يتألم " آه يا ظهري.. إنه يؤلمني بشدة ، لا أشعر بالراحة عند القيام أو الجلوس " نظر إليه ألكسندر وقال " لماذا تتألم هكذا..؟ ما بك يا رجل..؟ تبدو متعبا تغيرت كثيرا، لقد هرمت وعجزت وصرت كبيرا جدا، لست على سابق عهدك " رد عليه الجد ضاحكا وهو يسخر من حاله وقال " تعبت فقط ، إني أحس أن جسدي كله ممزق، حتى أن زوجتي ستفارقني عن قريب وهذا ما يزيد قهري، فهي آخر ما أملكه وتبقى لي في هذه الحياة، وذلك بعد وفاة ابنتي الوحيدة أريانا، تعجب ألكسندر لأمره وقال " ما بها زوجتك ؟ لماذا تقول أنها ستفارقك.. آه ؟ . أجابه الجد وقد أنزل رأسه تعيسا " لقد أصيبت بوعكة صحية، نتجت على إثرها انتفاخات على مستوى حنجرتها، فسدت بذلك مجاري الهواء وضاق عليها التنفس ، حتى أن الحكيم قال إنها ستموت قريبا، وأكد على ذلك وقال أيضا أنها

لن تدوم مطولا، وهذا ما أخشاه ، ولأول مرة أشعر بأن الضعف قد اخترق قلبي وسيطر عليه " .

نهض ألكسندر من مكانه وعلامات الغضب تحتل وجهه قائلا- وبلهجة تميل إلى التأنيب- " لماذا لم تخبرني من قبل..؟ هل نسيت كم أحبك و أمرك يعنيني..؟ إنك مثل أخي وأكثر، لماذا لم تحدثني .. حسنا لا تهتم أنا آسف على هذه الكلمات الجارحة والقاسية، بصراحة لقد صدمت كثيرا. لا أتصور ولا أكاد أصدق أن كل هذا حصل معك يا رفيقي، لا تضعف إني معك ومهما كثرت عليك المصائب تأكد أنها ستمر يوما، إني أخاف لقاءك مرة ثانية وأنت بهذه الحالة يجب عليك نسيانها صحيح صديقي " . ثم رفع يديه إلى السماء داعيا الله أن يخفف عليها قائلا " يا إلهي ساعد في شفاء زوجة صديقي ، إنها الوحيدة التي بقيت له في هذه الحياة ، كم كانت إنسانة طيبة مع الجميع وصادقة ، ارحمها يا رب ولا تحرمنا منها " .

نزلت دموع الجد وقد تأثر بحديث رفيق دربه. ومهما حاول إخفاء ذلك، فقد سبقته عيناه بالإجابة، حيث غرقت بالدموع والشفاه التي ترتجف من الأسى، نظر إليه وقال " أنا الذي يجب عليه أن يتأسف يا عزيزي ، فأنا كما ترى لا أخرج كثيرا بسبب مرضي، لذلك لم أقل لك عما أصابها، ثم إننا علمنا هذا منذ البارحة فقط ، مهما كان ومهما يكن الذي حصل معي، لم أقصد إخفاءه عليك. أنت صديقي وأكثر كما قلت ، والآن أستأذنك في الذهاب لشراء بعض الخضر وأمر على الدكان المقابل لأبتاع ساعة أيضا ، مد ألكسندر يده قائلا " هات يدك

لأساعدك في النهوض " وبعد أن نهض قال له مرة ثانية " اذهب لشراء لوازم البيت، لكن لا تنس.. سأمر عليكم في المساء حتى أطمئن على حال زوجتك وساندرا. لقد مضى وقت طويل لم أرها " ، وقبل أن يذهب الجد إلى الخضار ودعه وقال " أنا في انتظارك صاحبي " .

وقف أمام الخضار بعد وصوله وقال له " أعطني ربطة بصل وقليلا من السبانخ ورطلا من العدس " . حمل الخضار كل الأغراض ووضعها داخل الكيس وقال للجد " تفضل ها هي الخضر ... إن ثمنها سبعة عشر قرشا " ، أخرج الجد النقود من جيبه " تفضل ها هي نقودك ..شكرا لك " ، ثم توجه مباشرة لشراء ساعة ، فدخل المحل وألقى التحية على صاحبه قائلا " مرحبا بيتر ..كيف حالك يا بني ، لقد جئتك لشراء ساعة " ابتسم بيتر وقال له " لا مشكل لدي أي واحدة تختار ". نظر إليهم كلهم ثم قال "أعطني تلك الحمراء، إنها تبدو جميلة ستفرح بها زوجتي وحفيدتي بالتأكيد " ، حملها بيتر ووضعها في كيس وهو يقول " طبعا إنها أفضل الساعات في المدينة كلها.. تفضل لقد صارت لك عماه ". أخرج الجد النقود من جيبه وقال له " كم سعرها ؟ " ، رد عليه بيتر " ثلاثة وعشرون قرشا ". أعطاه الجد النقود " تفضل هذه ثلاثة عشر قرشا ..سأعطيك الباقي في المرة المقبلة عندما أعود " .

ابتسم له الشاب وقال " لا مشكل لدي يمكنك أن تدفع متى شئت " .

حمل العجوز ساعته وأغراضه وعاد بها إلى القرية مباشرة ، واستقل بذلك عربة، لأن الساعة أصبحت تشير إلى الثانية عشرة، مرت عليه مدة الطريق بصعوبة، جعلته يفكر ويتأمل لعله يرتاح حتى وصل، فرأت عيناه ساندرا تنتظره بفارغ الصبر. نزل ودفع للسائق ثمن إقالته وقدم له الشكر قائلا " تفضل نقودك ، شكرا لك سيدي " ، حملت عليه حفيدته كيس الخضار وهو الساعة ودخل بها إلى المنزل ، فقام بتعليقها إلى جانب صورة ابنته أريانا. وصعد أثناء تعليقها على كرسي، فكانت الجدة تحدق به وتتذكر أيامها عندما كانت على قوة ومقدرة، وبعد الانتهاء جلس معها وقال " كيف صارت حالك اليوم..؟ هل تناولت الدواء الذي أعطاك إياه الحكيم ؟ " . انزعجت منه وكشرت وقالت " نعم تناولته، لكنه لم يفدني بشيء.. إنه سيء للغاية، يشبه حساء من الفطريات المتعفنة. وأنت لماذا استغرقت كل هذا المدة في الرجوع ؟ ، إن المدينة ليست بعيدة كل هذا البعد، حتى تستغرق وقتا طويلا للعودة ". سكت عليها ولم يجبها إلا بعد أن كررت سؤالها وأصرت عليه، فقال لها " صحيح إنها ليست بعيدة بالنسبة لشاب أو فتى، لكن بالنسبة لي إنها أكثر من صعبة، فأنت تعرفين حالي جيدا، إن قدمي لم تعودا قادرتان على المشي لمسافة بعيدة، وأصبح هذا صعبا، إن لم أقل مستحيلا.. صعبا جدا ". وبعد فترة قصيرة تذكر أن صديقه سيأتي اليوم ليسأل عن حال زوجته.. نظر إليها وقال أيضا " يا إلهي إني قد نسيت أن أخبرك أن ألكسندر رفيقي، قادم اليوم حتى يراك ويطمئن عليك ريثما ينتهي من عمله، إنه

قلق عليك جدا حتى أنه غضب، لأني لم أخبره من قبل بمرضك ، سأقوم الآن وأطلب من ساندرا أن ترتب لنا البيت وتعد لنا العشاء. سيحضر عن قريب ..! .

نهض من مكانه واتجه ينادي " ساندرا أين أنت حبيبتي أريدك في أمر مهم. بسرعة صغيرتي " . ردت عليه " أنا في الخارج جدي سوف آتي في الحال " . وبعد أن جاءت تقدمت منه وقالت " قلت إنك تريدني في أمر مهم، أنا أمامك سمعا وطاعة يا نورعيني " .

فرح الجد بها كثيرا وقبلها كما يفعل دائما، حيث أعجبه تعاملها وقال " نعم أميرتي. اليوم قادم إلينا لزيارتنا شخص عزيز على قلبي، قومي بترتيب المنزل جيدا، حتى نرحب به ". ذهبت إلى المطبخ بعد أن قالت له " هذا فقط..؟ سيكون كل شيء جاهزا بعد لحظات.. سأذهب أولا لإعداد الطعام ، سيكون لذيذا جدا ، لكن قبل ذلك سأغسل يداي أولا " ، حركت الفتاة الخضر التي وضعتها داخل القدر لصنع حساء، في انتظار قدوم الضيف .

قاربت على إنهاء كل شيء من إعداد الطعام والترتيب، وما هي إلا دقائق فقط، حتى دق الباب فأسرعت لتفتح وبعد أن قامت بذلك، وجدت صديق جدها واقفا فقالت له " مرحبا.. تفضل أهلا وسهلا بك، رأيت أن الجو بارد قليلا في الخارج. إن الجدة أمام الموقد تنتظر قدومك ".

نزع ألكسندر حذاءه ووضعه داخلا على جانب الباب في الرواق، ثم اتجه للغرفة فلمح المريضة متكئة على الحائط تقابل النار بجانبها الأيسر، وقد بسطت قدميها

اتجاه الباب ؛ تقدم منها فحاولت القيام، لكنه أسرع إليها وقال " لا تتعبي نفسك .. اجلسي سأجلس قربك، والآن أخبريني كيف حالك ؟ . لقد قلقت عليك كثيرا، فقد أخبرني زوجك بما جرى لك حتى هو يبدو متعبا، لقد زارني في السوق وحاله لم تعجبني كثيرا " .

نظرت إليه وعيناها باهتتان يكفي الجواب عليه بهما، وبوجهها الذي يصارع الألم. قالت " نعم يا بني أنا مريضة ومتعبة كثيرا ، حالي كل يوم تتجه نحو الأسوء، وأنا لا أعرف حتى كيف ستكون غدا، فما بيني وبين الموت لا توجد سوى شهقة صغيرة ..صدقني هذه حالتي بدون نفاق " ، أنزل الرجل رأسه بعد سماع كلامها الجارح، ورغم ذلك حاول أن يرفع معنوياتها المنهارة فقال لها " لا تحزني.. ما هي إلا وعكة وستمر وترجعين إلى طبيعتك، فقط لا تفكري بسلبية وأنا أرجو من الله أن يبعد الضر عن صحتك و أن يشفيك بسرعة ، لا تقطعي الأمل " .

وفي هذه اللحظات دخل الجد وهو يرتعش من البرد، حيث كان يحضر الحطب من الخارج ولم ينتبه لقدوم صديقه ، تقدم إليه وقام بمصافحته وجلس أمام المدفئة لنيل بعض الحرارة، فيداه تكادان تتجمدان وهو يتكلم معه ومع زوجته ، وبينما هم جالسون هكذا يتبادلون أطراف الحديث صاحت عليهم ساندرا للقيام وتناول الطعام قائلة " هيا تعالوا إن العشاء جاهز " ، وبعد ندائها هذا قام الجميع نحوها والتفوا حول المائدة المتواضعة، التي بذلت في إعدادها عناء كبيرا، حتى يسدوا رمق جوعهم والذي يعض بطونهم. وبعد انتهائهم قدمت لهم أكوابا من

الشاي لاحتسائه قبل خلودهم للنوم، وقبل مغادرة ألكسندر الذي شكرها قائلا " إنه طعام لذيذ وشاي جميل شكرا لك " ، وبعد مدة قصيرة تكلم ليطلب منهم الاعتذار، لأنه سيغادرهم وقال" والآن اعذروني سأذهب، اعتنوا بأنفسكم واهتموا بالجدة.. سأعود إليكم مرة أخرى لكي أطمئن عليها " .

خرج ورافقته الفتاة إلى الخارج وهي تودعه قائلة " شكرا على زيارتك، عد مرة ثانية، والآن مع السلامة، اعتن بنفسك جيدا عماه ". وبعد هذا أقفلت الباب وراءه وذهبت لترتيب فراشها للنوم، لكن قبل ذلك راحت تتفقد حال جدها وجدتها اللذين نام كلاهما قبل فترة قصيرة، وبعد أن اطمئن قلبها عليهما، اعتدلت في فراشها ونامت تحت صفير الرياح ووقع المطر الذي يضرب سقف البيت، وفي اليوم الموالي نهضت البنت، وقد كان الجو مختلفا تماما عن أجواء هذه الأيام التي مضت، لقد كان صافيا، وكأنه يوم من أيام الاعتدال الربيعي. كل شيء فيه مبتسم .

حملت الأخيرة المشط وقابلت النافذة التي تطل من خلالها على الخارج، وهي تراقب الأجواء. راحت تمشط شعرها الذهبي برفق، لتذهب مباشرة بعدها لغسل وجهها، وهي تهيئ نفسها لاستقبال يوم جديد، وتأمل أن يكون القدر يحمل لها السعادة داخله، رغم أنها ترى أنه لن يبتسم لها. علقت أمالا جديدة على عاتقه، والذي قد جلب لها أشياء كثيرة ستعلمها لاحقا .

بدأت يومها كالعادة بإعداد الفطور، قامت بوضع أكواب القهوة والحليب مع قطع الخبز فوق المائدة، لكن استغربت لأمر جدها وجدتها، فلا يزال كل منها نائما، وهذا ما أثار خوفها وزاد من قلقها. اتجهت نحوهما وهي تنادي وتقول " جدي.. جدتي، هيا إنه وقت الاستيقاظ، لا وقت كسل ..هيا بسرعة، لقد دخل فصل الربيع.. فصل النشاط، ما هذا الخمول..؟ ".

وما هي إلا فترة قصيرة حتى قام الجد ورد عليها " حسنا أنا قادم.. هل جدتك مستيقظة أم لا زالت نائمة يا ابنتي؟ ". وهي في طريقها إليها ردت عليه " نعم إنها كذلك لا تزال تغط في نوم عميق، سأذهب إليها وأراها، لا تقلق ". في هذه الأثناء ارتدى العجوز نعله واتجه ليغسل وجهه، بينما كانت الأخيرة قد وصلت إلى جدتها والتي هي زوجته من أجل إيقاظها. وضعت يديها على كتفيها وقالت " هيا جدتي لقد بزغت الشمس، هيا إنه الصباح، لقد أعددت لك الفطور "، لكن الجدة لم ترد، فتعجبت لأمرها وعاودت معها الكرة والمحاولة الثانية، حتى هذه المرة لم ينفع، وبقي استيقاظها دون جدوى.

انتاب ساندرا القلق، فقد خطر على بالها وتذكرت تحذير الحكيم وكلامه عن موت جدتها، وهذا ما خشيته، وبالفعل لقد وضعت أذنها على صدرها، لعلها تجد بصيص أمل، فلم تجد حتى النبض ولا حتى التنفس، الأمر الذي خلق لها صدمة، جعلتها تصرخ بأعلى صوتها وكأنها رأت شبحا أو ما يشبه ذلك .

ركض إليها الجد وقال " ما بك يا ابنتي..؟ لماذا تصرخين هكذا..؟ ". لم تعرف كيف تخبره، حتى عند إعلامه كانت كلماتها تتقطع ووجهها كان قد غسل بالدموع، وفي الأخير قالت" إنها جدتي.. جدتي قد ماتت للتو "، لم يعرف هو الآخر ماذا يقول وماذا يفعل، فقد عجز حيال هذا الأمر الذي جعله يسقط على ركبتيه المثقلتين، وهو يشاهد عائلته تنتهي واحدا تلو الآخر، لقد كانت بمثابة صدمة بين الجسد والروح، تطعن فيها الروح فيتألم الجسد، ويتألم الجسد فتنتهي بذلك الروح.

ظل على هذه الحالة طوال اليوم بأكمله صامتا ، كأن لسانه قطع وابتلعه، أما ساندرا فقد بقيت تندب وجهها وتلطم فخذيها حتى كادت تجن ، حتى أنهم لم يناموا أبدا. وفي اليوم الموالي وبعد سماع الجيران بالفاجعة حضروا وكانت من بينهم ألورا وعائلتها لأداء واجب العزاء والمشي في مراسم الجنازة، وفي منتصف النهار تقدم أربعة شبان ووضعوا الجدة داخل نعش وقاموا بحمله تتبعهم في ذلك الطريق خطى جمع من الناس، وسط أجواء يخيم عليها الحزن. سار الكل نحو المقبرة لتشييع الجدة لمثواها الأخير، وتقدمت منها ساندرا التي كانت ترتدي ثيابا سوداء تطبع ما في داخلها من معاناة نفسية وفراغ روحي كبير يخنقها، وبعد تقدمها هوت واقتربت منها أكثر، وقامت بعد أن قبلتها وودعتها مع البكاء الذي لا يزال رفيقها حتى الساعة.

وضعت الجدة في القبر ورموا عليها التراب حتى غطى كل جسمها وانتهت حياتها وانتهت معها معاناتها، وبعد الدفن تلقت حفيدتها وزوجها العزاء من سكان

القرية، الذين بقوا معهم وما إن حل المساء واختفت الشمس وراء الأفق، اختفى معها و انصرف الجميع، فبقيت لوحدها مع جدها والأسى يخيم عليهم، وكأنها قطعة من الروح انتزعت منهما. وبعد سكوت لمدة طويلة أخيرا تكلم الجد قائلا " كنت أظن أني سأكون أسعد رجل عندما تزوجت امرأة جميلة أنجبت لي بنتا أنجبت لي حفيدة أجمل، لكن تفكيري كان خطأ فأتعس الناس أجملهم ، وحتى نتقبل هذا الأمر على أنه قضاء وقدر، يجب علينا أن نضع كل يوم احتمالا أسوء .. هذا هو الخيار الوحيد أمامنا " ، وبعد أن أكمل كلامه طلب منها أن تذهب إلى النوم قائلا" هيا ساندرا إن وقت النوم قد حان، اذهبي إلى فراشك ولا تفكري بشيء، فهذه مشيئة الله " ، قامت البنت من مكانها وودعت جدها قائلة " تصبح على خير جدي " . لكن الحزن والألم يعتصر فؤادها، لدرجة أنها تمنت الموت، وكان حلما لها بعدما خسرت الكثير من أحبتها في هذه الحياة القاسية. إن جور الأيام و متاعبها ذبحت شرايين الحياة وأواصر المحبة والتمسك وحبل الأمل الذي كان يربط ساندرا بالحياة، فهي كل يوم تنام على الحسرة والدموع .

ومن جهة أخرى كان أدونيس حبيبها قد تشاجر مع فاسيليوس صاحب العمل، وقرر ترك عمله بعدما حصل على بعض النقود ليشتري بها منزلا ويتزوج منها عندما يعود إلى أهله. رتب أغراضه واستعد للمغادرة، فقام بامتطاء حصانه الأبيض المنقط ببعض البقع السوداء، وسلك طريق الجبال حيث كان الظلام حالكا، لا شيء يرى، إلا بعض الأشياء اللامعة التي ينعكس عليها ضوء القمر

الخافت. وبينما هو سائر في طريقه، لاحظ عقدا جميلا كان مصقولا ومصنوعا من مجموعة أحجار كريمة وقطع من البلورات، تتوسطه قطعة فضية نقشت عليها بعض الحروف القديمة لم يستطع فهمها رغم محاولات عدة، كان العقد معلقا على شجرة ذات جذع ضخم محاطا بأغصان كثيفة، حمله وقد أثار دهشته وإعجابه، فقال متسائلا في نفسه " يا ترى هل يوجد أشخاص يمرون من هنا في هذه الطرق الوعرة..؟ " ثم وضعه في جيبه وأكمل مسيره في ذلك الطريق الخطر نحو قريته، وأهله الذين ينتظرون قدومه على أحر من الجمر، وبينما هو كذلك التفت إلى حصانه وقال " اليوم سأذهب إلى بلدتي الرائعة و أهلي، وأجمل ما سأراه هو زوجتي المستقبلية، إني متحمس كثيرا لرؤيتها ...هيا أسرع لنصل في أقرب وقت ". وظل يتكلم معه ويلتفت هنا وهناك وإلى كل ما يمكن أن تراه عيناه، فقد مر على مغادرة أدونيس العمل متجها نحو قريته يوما كاملا. لقد كان متعبا، لأنه لم يسترح طوال الرحلة، فقرر أن يخيم بقرب بحيرة؛ كانت هذه الأخيرة منيرة نتيجة تطاير الذباب المضيء هنا وهناك، وكأنها نجوم تتلألأ في السماء أو مصابيح تنير عتمة البيوت أو الشوارع .

مد أدونيس يده إلى جذع شجرة ليربط حصانه بها وقدم له بعض الشعير وبجانبه حزمة تبن، وذهب ليبحث عن أغصان أشجار جافة حتى يوقد بها النار ؛ مشى بعض الخطوات القليلة فلمح جذع شجرة ضخم ورديء وسهل التحطيم. شطره بضربة سيف إلى نصفين وأخذه إلى مكانه. فحمل بعض بقايا التبن ووضعه

بجوف القطعة الخشبية، وأخذ يفركه بواسطة أحد العيدان الرقيقة حتى ظهرت سحابة من الدخان عقبها اشتعال النار. أمسك بالحطب ورماه حتى اشتد اشتعالها، فبسط سجادته وبساطه وثنى معطفه كالوسادة تحت رأسه. بعدها أخذ يسبح بعينيه ويلاحظ النجوم والقمر الذي انعكس ضوؤه على البحيرة الجميلة، ونام نوما عميقا أخذ به إلى عالم آخر وهو العالم الذي يحلم فيه بمستقبله المجهول، فترسم له صورا كثيرة عادة ما يراها وينساها عند الاستيقاظ. وبعد هذه الليلة التي نام فيها مرتاحا، سطع نور الشمس في اليوم الموالي، فلامس وجهه وعيناه وكأنه يدعوه للقيام، فنهض الأخير من فراشه واتجه للبحيرة حيث اغتسل منها ووضع داخلها قارورة لملء الماء ؛ ثم ذهب إلى حصانه وفك رباطه بعد أن استعد لإكمال مسيره فلم يتبق لوصوله سوى يوم أو يومين على الأكثر حسب توقعاته ؛ لكن الشوق يقتله، وهذا ما جعله يجهد الحصان و يرغمه على الإسراع، ليكسب الوقت أكثر ويصل في فترة قصيرة .

وفي الجهة الأخرى المقابلة، كان قد مر على وفاة الجدة حوالي أربعة أيام ؛ وساندرا لا تكاد تنهي أسبوعها الأول بدون جدتها، التي اهتمت بها بعد وفاة أمها أريانا، وكانت دائما سندها ومثالها الأعلى الذي يحتذى به، وحتى الجد كان له نصيب كبير في العناية، الأمر الذي زاد عليه مشاق الحياة، فقرر أن يسافر إلى الريف المقابل لهم، والذي يبعد عنهم مسافة أسبوع ونصف من السير. توجد فيه قرية صغيرة يمتلك فيها قطعة أرض مربعة الشكل، متوسطة المساحة، محاطة بسور

من الأسلاك الشائكة وأعمدة خشبية بطول إنسان؛ اتجه وذهب إليها ليبيعها ويرجع بثمنها من أجل إكمال ما تبقى من حياته به ويؤمن حياة حفيدته من بعده ؛ لتكمل هي الأخرى مشوار الحياة دون نقص .

أيقظته ساندرا في الصباح الباكر، بعدما رتبت له أغراضه وما يلزمه للسفر داخل حقيبته. وضعت فيها أقمصته وبنطلونا ؛ استاء العجوز من شكلها، بحيث كانت تشبه كيسا للقمح صنعته الجدة قبل وفاتها ؛ كانت الساعة تشير في هذه الأثناء إلى حوالي السابعة وعشرين دقيقة.. هذا الوقت المناسب الذي ينطلق فيه، وبعدما انتهت الفتاة من إعداد مستلزماته ، وقبل ذهابه، تقدمت منه وعانقته عناقا شديدا وهي تبكي، وتلاحظ آخر ما تبقى لها في الحياة يسير نحو العربة التي ستقله إلى وجهته؛ لم تتحمل هذا الفراق الذي سيطول عنها قليلا، ونادت بأعلى صوتها " وداعا جدي لا تنس أن تعود إلي قريبا " وهي تلوح بيدها يمينا وشمالا، ثم عاودت الرجوع إلى المنزل وإغلاق الباب وحبس نفسها داخله، لأنها تشعر بإجبارية التعود على ذلك ؛ لكنها تأمل أن يخبئ لها القدر في طياته بعضا من السعادة، وتمنت الأفضل لحياتها المقبلة ؛ وبالفعل لقد خبأ لها الكثير ومن بين هذا وصول أدونيس، وهو الآن متجه نحو بيته، وما يربطها به هو أنه يتيم الأب يقاسمها بعضا من ألمها ولو بالقليل، وكان سبب وفاة والده هو الإصابة بمرض عضال صارعه مدة طويلة من الزمن قبل أن يموت . مرت على هذا الشاب أيام صعبة بعد وفاة أبيه، وهذا ما جعله يهاجر ويعمل في ظروف

أشبه بالعبودية، مع انعدام الكرامة . بعد وصوله احتضنت الأشواق، قبل أمه التي قامت لفتح الباب الذي طرقه بتأن ؛ لم تصدق الأم ونسيت كل ألمها الذي يعتصرها، وراحت تبكي غير مكترثة لما سيحدث لنفسيتها المنهارة ؛ ولكن باعتبار هذه دموع فرح، لم يكن لها تأثير سلبي .

دخل ولدها المنزل وقام بنزع ثيابه وطلب منها أن تحضر له بعض الطعام لأنه جائع، بينما يحضر هو لأخذ حمام ساخن حتى يريح جسمه، فهو منهك تماما لدرجة أنه لم يسأل عن حال والدته ؛ و بدورها تفهمت هي الأمر وذلك بعد ملاحظتها لحالته التي يرثى لها، لكنها لم تستطع أن تخبئ تلك المكبوتات التي أرهقتها ووجهت إليه نظرات وقالت " يا بني تبدو وكأنك كنت في ساحة حرب لا عمل ؛ لقد أصبحت كالهيكل العظمي حتى ظهرك نال منه التعب وتقوس " لم يكترث الولد لكلامها ولم يجبها عليه، لأنه كان منشغلا بتسخين الماء، فاقتربت منه وأمسكته من يده وهي حزينة لحاله وقالت " لماذا يا بني تتجاهلني ..؟ ما الذي يشغل بالك..؟ أنا قلقة عليك، منذ غيابك عني لم أذق طعم السرور أبدا وقد زاد مرضي كثيرا " وحتى هذه المرة بقي ساكتا واكتفى بتوجيه نظرة تشاطرها نفس المعاناة، ثم حمل إناء الماء للحمام المتواضع وراح يستحم، حيث استغرق مدة طويلة فيه، وبعد خروجه مباشرة تقدم للمائدة ليتناول طعامه، لكن قبل ذلك شعر بالتقصير في حق أمه، فما كان عليه أن يتجاهلها، مهما كانت الظروف قاسية فهذه أمه. تقدم منها وقبلها على جبينها وقال متأسفا " اعذريني أماه، لم

أكن أقصد أن أتجاهلك، لكنني كنت منهكا تماما حتى الكلام لم أقدر على النطق به، وبما أنني الآن أنهيت حمامي واسترحت قليلا، أخبريني كيف حالك..؟ وكيف حال القرية ؟ هل من أخبار جديدة عنها .. هل تغيرت ؟ " فأجابته وهي مستاءة من كل ما مر عليها وقالت " أنا كما تراني دائما مع المشاق، وما أحزن قلبي هو ابتعادك عني ووفاة زوجي والدك فتحت علي أبواب القهر؛ أما القرية فهي بخير تقريبا، لا جديد فيها.. فقط وفاة جدة ساندرا أوجع وأفجع قلوب السكان وخصوصا العجوز زوجها هو والصغيرة، يا حسرتاه على ما آلت إليه أوضاعها من آلام، حتى الجميع لم يعد يسأل عن أوضاعهما، فالكل مشغول، وهذا ما دفع جدها للسفر إلى قرية أخرى على ما أظن .

نهض أدونيس من مكانه وقال " متى يسافران يا أمي..؟ " ردت عليها بعدما قامت هي الأخرى من مكانها إثر انفعال شديد من ابنها " لا أدري ، لكن سمعت فقط وأنا لست متأكدة جيدا ".

ارتدى الشاب نعله ومعطفه وخرج مسرعا نحو بيت ساندرا، ليتأكد من صحة ما سمعه وهو يرجو أن يجدهما وألا يكونا قد سافرا، فما إن وصل حتى شاهد حبيبته جالسة أمام الباب. ذهب إليها وقد أثلجت تلك النظرات التي وجهها إليها صدره، وبمناسبة عودته أراد أن يفاجئها فذهب إليها من الجهة الخلفية للمنزل وهو يمشي على أصابع قدميه، وتقدم منها رويدا رويدا دون أن يصدر أي صوت، بحيث عند إطلالته عليها كان مقابلا جهتها اليمنى ؛ لم تتبق سوى بعض

الخطوات القليلة، وهي الفاصل بينها وبينه وخوفا من أن تراه فتضيع مجهوداته سدى. صرخ يناديها " ساندرا ..لقد عدت من أجلك.. لا تسافري أنا أرجوك " ، نظرت إليه وعلامات الفرح لأول مرة ترتسم على وجهها، ثم قامت من مكانها ووقفت أمامه، غير مصدقة أنه قد عاد بعد هذا الغياب الطويل ، ولم تكن تظن أنه هناك ما تراه وتجنيه غير الجراح و المآسي في الوقت الذي أجبرت فيه على الإيمان به، أرادت أن تجد شخصا تروي له كل ما مر عليها وها هي الآن تجد أقرب الناس إلى قلبها يقف أمامها، وما شدها إليه هو حالته التي تغيرت كثيرا، فأول كلام لها كان هو " لقد انتظرتك كثيرا ومر علي هذا الانتظار بصعوبة تعجز حتى الجبال عن تحمله، لقد توفيت جدتي وسافر جدي، أخبرني أين كنت هذه المدة وما به جسدك تغيرت كثيرا. لم تكن هكذا في آخر مرة تركتك فيها، كنت قويا البنية والآن ماذا جرى لك ؟ "

جلس على عتبة الباب وهو يبتسم وقال " إنها مشاق الحياة والعمل الذي أجبرت عليه كما تعرفين، بعد وفاة والدي تحطمت كل أحلامي، وجدت نفسي محاطا بكثير من المسؤوليات التي اعتقلت طموحاتي، لم يتبق أحد من عائلتي يتعاون معي ويصرف على أمي، التي طعنت في السن وعجزت، حتى أني لم أرث عن أبي سوى ذلك المنزل المهترئ؛ كل هذا جعلني أمضي في طريق المخاطرة ورمي كل شيء جميل حلمت بتحقيقه وراء ظهري، لأنه أصبحت لي غاية واحدة هي الاعتناء بأمي

والزواج منك. لقد أخبرتني أمي أنك مسافرة، صدمت كثيرا وارتبكت أمامها، حتى أني لم أجد ما أقوله وخرجت مسرعا و تركت طعامي.. أظنه قد برد ! " .

ردت عليه وكلها بهجة و أمل و فرحة بقدومه قائلة " لا لست أنا المسافرة ؛ إنه جدي سافر منذ قليل للقرية المجاورة لنا، قال إنه يريد أن يبيع قطعة أرض يملكها وسيعود بعد حوالي أسبوع ونصف " . فرح أدونيس عندما تأكد أن رفيقة عمره لن تغادر، بل جدها سافر لأمر مهم ، فقام من مكانه و أمسك يدها وقال " لقد خفت أن تكوني مسافرة وتتركيني وحيدا ولا علم لدي، وما دمت قد عدت سأتزوجك ولن أرضى بغيرك، فعندما يعود جدك سآتي لطلب يدك منه، ولن أضيع مزيدا من الوقت، هي فترة قصيرة وستصبحين زوجتي، والآن سأرحل لأستريح قليلا وسأزورك من فترة لأخرى .

رجع الأخير لبيته بعدما اطمئن عليها، حيث كانت الساعة تشير إلى الرابعة مساء، وبقيت ساندرا تراقبه حتى اختفى عن أنظارها ؛ بعدها مباشرة دخلت للمنزل لتغسل بعض ثيابها وهي سعيدة متفائلة بأن حياتها ستتغير، وتنتهي مشاقها وتبدأ صفحة جديدة، ولن تر التعاسة قط بزواجها ورجوع جدها، وبينما هي جالسة تذكرت والديها فقالت " ليتكما كنتما معي والدي لتشاركاني فرحتي؛ فأنا لم أر السعادة منذ زمن طويل، وأتمنى ألا تفارقني أبدا، أمي.. أبي سأتزوج بعد أيام و تختفي معاناتي ، أعدكم أني سألتقي بكما يوما ما " .

وبعدما أنهت غسيلها قامت تنشره في الحوش و قابلته حتى تجف الملابس ، ثم بعد ذلك طوتها ووضعتها في خزانتها المتواضعة لتفرغ بعدها لإعداد الطعام ، اتجهت لغرفة المطبخ فحملت سكينة وبعض من الخضار وقطعتها مع قطعة صغيرة من اللحم و رمت بهم داخل القدر بعدها رمت حبات البازلاء و راحت تنتظره كذلك ، و بعد نضجه وضعته في صحن و لأول مرة تتناول طعامها لوحدها ؛ لقد أحست بأنه سيء بدون وجود جدها الذي كان قد باع قطعة الأرض لشخص من تلك القرية التي ذهب إليها ، لقد باعها بمبلغ جيد سيعود به بعد الإنتهاء من بعص الإجراءات .

كانت حزينة، فحملت فراشها من الغرفة التي كانت تنام فيها مع جدتها إلى غرفة ثانية بسيطة، ووضعت الأغطية فيها. ولأول مرة كذلك تنام لوحدها وهي تقول " يجب أن أتعود على الوحدة من الآن "، لتنام مباشرة بعدها في ليلة هنيئة.. لا أحلام مزعجة فيها ولا اكتئاب ؛ لتنهض في الصباح و قد أصابتها حمى وآلام في بطنها، فخرجت قليلا لعلها ترتاح، وقد أعدت كوبا من الشاي لاحتسائه وهي تراقب الأزهار والجو الصافي والعربات التي تجرها الأحصنة نحو المدينة، ليكسب أصحابها التجار لقمة العيش. كان من بين أولئك صديق جدها ألكسندر، فقام بتقديم التحية لها قائلا " كيف حالك يا ابنتي..؟ " . ردت عليه بألم " أنا بخير قليلا عماه، تعال معي لنحتسي الشاي، لقد قمت بإعداده للتو " لم يرفض الرجل دعوتها رغم عجلته وقال " حسنا يا بنيتي.. سآتي، لكن أحضريه بسرعة،

لأني ذاهب مباشرة بعدها للمدينة للعمل وأنا مستعجل في ذلك ". أسرعت الفتاة لإحضار الشاي وأعطته إياه، لقد انتبه ألكسندر إلى أن صديقه العجوز غير موجود، فسألها متعجبا " أين جدك يا صغيرتي..؟ إني لا أراه هنا " ، فأجابته " لقد سافر و سيعود عما قريب " .

استغرب وقال مرة أخرى " إلى أين.. ؟ ". نظرت إليه وقالت " إلى الريف المقابل لنا، يملك قطعة أرض، سيبيعها و يعود قريبا ". في هذه اللحظة كان ألكسندر قد انتهى من احتساء الشاي وهو ينظر إلى حصانه يشد الحبل وينظر إلى الطريق، فوضع الكأس وقال " شكرا على هذا ولا تنسي أن تبلغي سلامي لصديقي واعتني به، فهو آخر ما تبقى لك في هذه الحياة " ، ثم نظر إلى عربته، وقال مخاطبا حصانه " أنا قادم لا تقلق ... والآن سأذهب عزيزتي اعتني بنفسك جيدا "، وقامت هي الأخرى من مكانها، وودعته قائلة " شكرا عماه.. رافقتك السلامة"، ومن ثم تفقد الرجل أغراضه متجها للسوق الذي يبعد مسافة نصف ساعة. وما إن وصل أخذ يصلح أحذية زبائنه، فيخيطها بخيوط رقيقة ثم يدفع بمسمار من الأسفل، حتى تتماسك كل الأجزاء، و كان موعد انتهائه اليوم من الشغل عند الثالثة. تفقد مرة أخرى أغراضه، ليعود مرة ثانية من نفس الطريق التي سلكها وهو يمر على ساندرا، لأنه طريق مختصر وملائم لكل العربات، فكل الناس تمر من هناك؛ وبينما هو عائد نظر إلى بيتها لعله يلمحها، لكنها لم تكن في الخارج فاستمر مكملا طريقه، والسبب في عدم تواجدها بالخارج هو اشتداد المرض

عليها وحالها الآن متدهورة للغاية، فكلما أكلت شيئا إلا ورمته مباشرة. لقد بدأت تظهر عليها أعراض الحمى وارتفعت درجة حرارة جسمها كثيرا، لقد صارت ترتجف فأرادت أن تأخذ عود ثقاب لتشعل به النار، لكنها لم تجده. لقد خبأته داخل علبة في كيس مع كيس الملح؛ وظلت تبحث عنه مدة طويلة، وهي متعجبة محتارة فتمشي وتقول " يا ترى.. أين علبة أعواد الثقاب..؟ إني لا أذكر أين وضعتها .. يا إلهي ساعدني "، توقفت بعد مدة أمام سلة وراحت تفرغ كل العلب والأكياس حتى وجدته؛ حملت معها بعض الأعشاب لتغليها، لعل وعسى الألم يخف وتنتهي معاناتها.

خرجت ساندرا لإحضار الحطب، وما إن عادت أوقدت النار ووضعت إناء به ماء، ثم رمت حزمة من الأعشاب وهي ترتعش، وراحت تنتظر بعد تحصلها على مشروب تلك الأعشاب، وما إن شربته حتى نامت، لأنها لم تعد قادرة على البقاء مستيقظة. لقد غطت نفسها جيدا حتى لا تحس بالبرد وغطت في نوم عميق .

لقد ظلت على هذه الحالة ولم تقم أبدا حتى اليوم الموالي، فزادت حالتها سوءا، وما جعلها تطيل في نومها هو الألم الذي لم يتركها تنام جيدا في تلك الليلة البائسة، ولم تقم حتى لإعداد وتناول الفطور، فلا أحد معها ليساعدها، الأمر الذي دفعها للذهاب إلى أحد بيوت الجيران، لتجاوز هذه الأزمة، وبينما هي تسير في الطريق، شعرت بغثيان وتقلبات داخل أحشائها وكأنها تتقطع، فأسرعت لإفراز ما في بطنها، حتى أنها كلما تقيأت شعرت ببعض الراحة، لكنها لا تدوم فسرعان ما

تعود لحالتها ؛ وحتى تشفى فكرت في الذهاب لألورا لكنها بعيدة جدا، أما باقي الجيران فلا تثق إلا بأدونيس أو ألكسندر، لكنه بعيد أيضا، لذلك لم تجد خيارا سوى الذهاب إلى بيت زوجها المستقبلي، لتعيش مع أمه وتعود في المساء عند حلول الظلام، من أجل النوم في بيتها .

الفصل الثالث

رتبت ساندرا بعض المؤونة في كيس حتى تأخذها معها ورتبت ملابسها، وهي الآن جاهزة للخروج ؛ وما إن وصلت دقت الباب ففتحت لها الأم و استقبلتها، لكن ما أثار دهشتها أن الأخيرة لا تبدو بخير والأمر الآخر أنها تحمل حقيبة فيها بعض الطعام .

نظرت إليها وهي مستغربة ثم قالت " مرحبا بك صغيرتي تفضلي ادخلي ". فدخلت الفتاة وكلها خجل وحرج، فكيف ستقول للأم أنها قادمة تريد منها حاجة وخدمة لبعض الوقت، وهذا ما أقلق العجوز، فلم تأت لزيارتها منذ زمن طويل .

ارتبكت ساندرا وجلست على كرسي خشبي صغير والأم تقابلها وهي محتارة وقلقة بشأنها وتريد أن تكلمها ، أحست الفتاة من خلال نظراتها أنها تنتظر منها شرحا لمجيئها، فتكلمت أخيرا و أخبرتها بحالتها قائلة " اعذريني أماه، إني قد جئت اليوم من أجل أن أبقى معكم بضعة أيام، حتى أشفى من مرضي ثم أرحل، لن أبيت عندكم، فقط أبقى لتناول طعامي وتساعديني في غسل ملابسي وترتيبها، فأنا

مصابة بحمى وألم يكاد يقتلني وأخاف أن يحدث لي مكروه ولا أحد يعلم ذلك، أرجوك اسمحي لي بالبقاء معك ".

لم ترفض الأم طلبها، بل كانت سعيدة بقدومها وأحضرت لها قليلا من الأكل وبعض الأدوية لتسكن الألم، وراحتا تتشاطران أطراف الحديث، فقالت لها " لا مشكل لدي، أنا سعيدة جدا بحضورك؛ فأنا كما تعلمين صرت وحيدة تقريبا، ابني ذهب ليزور أصدقاءه، ولا أعرف متى يعود. على الأقل نتعاون وأجد من يساعدني وأمضي معه وقتي. والآن استريحي قليلا وفي المساء سنتشارك في إعداد الطعام، ولا تخجلي مرة أخرى.. تصرفي كأنك في بيتك ". تشكرها البنت على لطفها قائلة " شكرا لك لولاك لما عرفت أين أذهب، لا تنسي أن توقظيني حتى أساعدك ".

في هذه اللحظة انصرفت الأم لإنهاء بعض الأشغال في الفناء، وعند وصولها إليه قامت بكنسه ومسحه ورشه بالماء ليذهب عليه الغبار، ولم تنس كذلك أن تتفقد حصان ابنها، وأن تنظف بقايا أكله والروث، وأعطته التبن من جديد و قليلا من الشعير والماء، فكل هذه الأعمال تتحملها أثناء غيابه، لينتهي بها المطاف في الأخير عند باب المطبخ . أحضرت التوابل وغسلت القدر جيدا حتى تطهو فيه الطعام، بينما كانت الأخرى تغط في نوم عميق، لم تشأ أن توقظها حتى تنتهي من إعداد الأكل، وهي تراقبها من بعيد وتذهب للغرفة الموجودة والنائمة فيها، ورغم إرهاقها وتقدمها في السنن تحملت وأخيرا انتهت من إعداد وجبة العشاء. في الوقت الذي

كانت تشير فيه الساعة إلى حوالي الثامنة والنصف، استيقظت ساندرا فقامت من مكانها وغسلت وجهها وعلامات الغضب والانزعاج تحتل الأخيرة، حيث أن العجوز لم توقظها لتساعدها فقالت وهي غاضبة " لماذا تحملت كل هذا لوحدك " ردت عليها الأم وهي تبتسم " لا مشكل رأيتك نائمة فلم أشأ إزعاجك ، تفضلي لتناول العشاء " .

أخذت كل واحدة منهما تتناول طعامها وما إن فرغتا حملن الصحون و رحن يغسلن و يرتبن المنزل ، وبعد مرور ساعة رتبت ساندرا نفسها للرجوع إلى بيتها ؛ حيث رافقتها الأم إلى الباب وقامت بتوديعها ، لكن الفتاة وبعد مشيها بضع الخطوات أصابها دوار، فهي لم تشف بعد. حاولت التقدم فزاد عليها وجعها وراحت تتمايل هنا و هناك ، لقد انقطع عليها المشي و ضعفت قدماها وثقل عليها جسمها، مما دفعها للجلوس والعرق يتصبب منها . لم تبتعد كثيرا لكن خجلها من العودة أثر عليها وجعلها تتغلب على مرضها وتتقدم نحو منزلها وهي تقف وتجلس حتى وصلت ، لقد ارتمت على فراشها فور وصولها و اشتد بها المرض وزادت حالتها سوءا، فالسعال وحريق في حلقها وصوتها الذي فجر صدرها، كل هذا كان عنوان مرضها . صارت كقطعة الثلج متجمدة في مكانها تصدر أنينا، فلا أحد يسمعها فهي لوحدها لم تقدر حتى على النهوض فكلما حاولت محاولة حتى تصير حالتها أكثر سوءا . لقد بقيت طوال الليل مستيقظة لا تغفو لها عين ولا ينام لها جفن، حتى طلع عليها الفجر وقد احمرت

عيناها و انتفخت كذلك ، لم يسبق لها أن مرت بوباء كهذا، لقد اجتمعت عليها كل أعضائها بالألم . فكل جزء من جسمها يتألم ؛ فتحت يدها فرأت أن الدم وكأنه غير موجود لقد اصفرت و انكمشت وبرزت مساماتها بشكل واضح، و ارتفع زغب الشعر، وتشوك لحمها من شدة الارتجاف و تشققت شفتاها وحتى اللعاب فر من فمها .

ارتدت نعلها و تقدمت نحو المرآة لترى وجهها الجديد ، انبهرت ووضعت يدها عليه وهي تمررها ذهابا و ايابا و تديره يمينا ويسارا ، لقد ظهرت عليه بقع حمراء قليلة . أصابها الارتباك وقالت " يا للهول ما هذا..؟ لقد تغيرت كثيرا أصبحت أشبه وحش مستنقعات ؛ أخاف أن يراني الناس هكذا فيسخرون مني، سأذهب لأستحم لعل هذه الأعراض تنتهي فإن بقيت لن أبقى على قيد الحياة أبدا " . خرجت بعد ذلك مسرعة لإحضار الحطب ووضعته على موقد النار وهي تترامى ، ثم أتت بقطع الصابون والمشط و أخذت كل هذه الأغراض للحمام و استحمت بماء دافئ وهي قلقة بشأن مرضها، ورغم الألم و الحمى قاومت حتى ترجع لها بشرتها الناعمة و شعرها الذهبي الحريري . أصبح شعرها مشعثا و تشقق وجهها أكثر، بحيث عادت للمرآة لترى كيف صارت ملامحها ، لكن شيئا لم يتغير فأخذت تبكي و رجعت للاستلقاء، و النحيب يرافقها في حين نسيت أن تعود لبيت حبيبها حيث وعدت أن تزور أمه كل يوم حتى تشفى، وماهي إلا فترة قصيرة حتى سمعت صراخا ينادي باسمها في الخارج، وطرق على بابها فذهبت لتفتح فرأت

بعد الفتح أدونيس و أمه واقفين، حيث كان الأخير ينظر ناحية قدميه، بينما كانت أمه تنظر إلى الأرض مباشرة، فقامت بالاستدارة إلى الخلف فكلمها قائلا " ما بك..؟ لماذا لم تأت اليوم..؟ أمنزعجة منا أم ماذا ؟ ولماذا تعطين بظهرك لنا " . وضعت الفتاة يداها على وجهها و انطلقت نحو غرفتها، فلحقوا بها و أصروا على الحديث معها فأجابتهم بنزع يديها عن وجهها و مواجهتهم بالحقيقة قائلة " لقد أصبت بمرض لا أعرف سببه و أنا خائفة أن أبقى على هذا الحال، فيجرح الناس مشاعري بكلامهم رغم أني جميلة " .

طلب منها أدونيس و أمه أن ترافقهم إلي بيتهم و تبقى معهم حتى تصح، ووعدها أنه سيجد لها علاجا فوافقت على الذهاب ؛ وبعد مرور يوم أخذها عند الحكيم، حيث قام أدونيس بتركيب عربته القديمة بحصانه من أجل أخذها للعيادة ، وبينما هم في الطريق طمأنها ورفع من معنوياتها قائلا " لا تقلقي ساندرا لن أسمح ما دمت على قيد الحياة أن يصيبك مكروه و سأعمل جاهدا حتى تعود لكي الابتسامة من جديد " . وبعد انهاء كلامه شد الحبل الموصول برقبة الحصان، فتوقف ونزل الاثنان نحو العيادة ودخلت الفتاة على الحكيم وهي متوترة، أعصابها تكاد تنفجر وقلبها يدق بسرعة كبيرة ، كانت تنظر إلى الأرض لتتجنب رؤية المرضى الخارجين من غرف العلاج لها، وهي تدعو أن تشفى في القريب العاجل . كان الوقت يمر بسرعة كبيرة وخرج كل الموجودين هنالك، فنادى عليها الحكيم للدخول و بدأ بفحصها ليشخص لها المرض و يصف لها الدواء المناسب .

كان أمام أدونيس رحلة طويلة حتى تشفى زوجته المستقبلية ، لقد حصل ما لم يكن يتوقعه أحد إن هذا الداء لا دواء له ولا علاج سوى بالأعشاب، و يا ليت الأمر توقف هنا فهذه الأعشاب نادرة و الحصول عليها أشبه بالمستحيل . خرج الأخير وزوجته غاضبين و فصل العربة عن الحصان و انطلق في رحلة البحث عن تلك الأعشاب، التي هي أمل حبيبته في الرجوع إلى حالتها الطبيعية ، لقد كلم كل عشاب يلتقي به لكن الكل كان جوابه سلبا ؛ إلا عشابا واحدا كان جوابه " لا.. لا أعرف هذه الوصفة، فهي من الأعشاب النادرة" . غضب أدونيس وقال " لم أترك شبرا في هذه البلاد إلا و بحثت فيه، لكن كل ذلك كان دون جدوى ، يا إلهي ماذا أفعل " . و بينما هو شارد تقدم من ذلك الرجل وقال مرة ثانية " صحيح لقد تذكرت اتبع هذا الطريق ستجد هنالك رجلا عجوزا وحكيما بالتأكيد سيساعدك ."

شكرت ساندرا و أدونيس ذلك الرجل و انطلقوا مرة أخرى في رحلة البحث المتواصل عن ذلك الترياق ، لقد كانت الطريق على اليمين لكنها محفوفة بالمخاطر وفيها كثير من الخطر ، كانت سرعة الحصان كافية للوصول إلى وجهتهم لولا اعتراض جماعة من المسلحين طريق ساندرا و أدونيس اللذين أصيب قلباهما بالذعر، لكن في الأخير نجى الاثنان بفضل سرعة ذلك الحصان ، لكن مازال الخطر قائما إنها مجموعة كبيرة من المسلحين الأشرار .

استقر الاثنان داخل مغارة في تلك الغابة الكثيفة، بينما كانت المجموعة الإجرامية تبحث عنهم ، في هذه الأثناء نظر أدونيس إلى ساندرا و قال " كدنا نموت ونقتل لولا رعاية الله و حفظه .. انتظري هنا لقد رأيت بعض الفطر ينمو أمام هذه المغارة. سأحضره و أعود بسرعة لا تتحركي من مكانك " . ذهب الأخير لإحضار الفطر، وبعد عودته طلب منها أن تطهوه على العشاء اليوم ، لكن ساندرا لم يعجبها وقالت " سنتناول هذا ؟ يا إلهي إنه مقزز للغاية " .

لقد مر يومان، وحان موعد خروجهم من تلك الغابة ومواصلة دربهم، لكن القدر له رأي آخر، فعند خروجهم كانت تلك العصابة تقف أمامهم مباشرة . استدار أدونيس للخلف، وراح يركض بحصانه و ساندرا راكبة وراءه، مما جعلها تصاب برصاصة أطلقها أحد المسلحين .

سقطت دموع حبيبها وقال " اصمدي سنصل إلى الحكيم و سيداويك و ترجعين سالمة " . لكن أمل ساندرا في النجاة كان ضعيفا جدا، لذلك قالت له " وداعا.. اعتن بنفسك جيدا، سنلتقي يوما ما في عالم آخر ملؤه السلام و المحبة و الخير " ، كانت هذه آخر الكلمات التي نطقت بها الفتاة، قبل أن تصعد روحها إلى السماء معلنة وفاتها " . لكن أدونيس لم يكتشف ذلك، إلا بعد ابتعاده عن العصابة كثيرا، حيث نزل على الأرض، و أنزل ساندرا التي ابيض وجهها و أصبحت شفتاها زرقاوان، كأنها تولد من جديد ، لقد صار جسدها باردا كالثلج، ولونه كذلك أبيض كالثلج . سحبها رفيق دربها وهو يصرخ غير مصدق ما حدث، وكأنه حلم لا

حقيقة، لكنه فيما بعد تقبل كل شيء وقال " لن يفيدني الصراخ في شيء.. هذا قدر الله، لله ما أعطى ولله ما أخذ " .

و في النهاية و بعد مرور حوالي ساعتين من البكاء حفر، لها قبرا و دفنها و دفن معها سر ميلاد عشق الزمان ساندرا، وقبل أن يغادر وضع قطعة من الخشب فوق القبر، و تحديدا فوق مكان الرأس و كتب عليها عبارة: " سأظل أحبك ".

نبذة عن الكاتب

الإسم: عبدالله مجيدي

المستوى الدراسي: بكالوريا

المهنة: تسويق شبكي و استثمار

العنوان: مسيلة _ الجزائر

الأعمال السابقة:

- (أحضان قاسية) مجموعة قصصية_ دار خيال للنشر والتوزيع.

دار
قصص وحكايات
للنشر
الإلكتروني